



من فكر السجون وأدبه

الإصدار التاسع

تأملات في كرامة الإنسان

محمد سعيد حسن إخبارية
سجن ريمون



تأملات في كرامة الإنسان



الكتاب: سلسلة فكر وأدب السجون (9)

تأملات في كرامة الإنسان

المؤلف: الأسير المجاهد/ محمد سعيد إغبارية

الناشر: مؤسسة مهجة القدس
غزة - فلسطين

الطبعة: الأولى

سنة النشر: ذو القعدة 1441 هـ
يونيو - حزيران 2020 م

رقم الإيداع: 1372 / 2020

الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة
عن وجهة نظر مؤسسة مهجة القدس

حقوق الطبع والنشر محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

صدق الله العظيم

[الإسراء: 70]



إهداء

- إلى أمي التي كانت لي خيمة بحنوها
وحبها وعطائها الذي لا ينضب.
- إلى زوجتي التي رافقتني الدرب بصبر
وعناد لا ياريان.
- إلى كل شهداء الحق والحقيقة.





مقدمة

كرامة الإنسان هي موضوع اهتمامي في هذه التأملات، وأظنه موضوعاً في غاية الأهمية ومنتهى الخطورة كونه الأساس الذي عليه تبنى العلاقات ما بين الإنسان وأخيه، وكونه الأساس الذي يقوم البناء الاجتماعي لأي شعب كان، وإذا ما أصيب هذا الأساس بالهشاشة والضعف فإن المجتمع برمته مهدد بالوبال والانهيار على رؤوس الجميع، ومن هنا تكتسب كرامة الإنسان أهميتها وضرورة احترامها للمجتمعات الإنسانية كافة.

وهي أيضاً المادة الحافظة التي تحمي إنسانية الإنسان، أيًا كان هذا الإنسان؛ إذ بدونها تكون العلاقات الإنسانية هشة واهية وتفتقر للعمق الإنساني وللوشيجة المتينة المديدة التي تصل بنا إلى أبينا آدم عليه السلام، والتي تربط بين جميع بني البشر، وتبقيهم في دائرة إنسانيتهم إذا حافظوا عليها وحموها؛ إذ أنه متى دبت بينهم الخلافات والمنازعات فإن (كرامة الإنسان) إذا ما التزموا بها، فإنها تحفظهم من السقوط في هاوية التحلل والتفكك والخراب وتصون إنسانيتهم من التفسد والتعفن، وتعصمهم عند الأخذ على يد المجرم أو معاقبة الجاني أو مغالبة العدو من الانحطاط إلى ما دون كرامتهم بالإهانة والإذلال، وتجعلهم يعاملونهم بالقانون والقانون العادل فقط.



وهي أشد عصمة لهم متى اختلفوا في الرأي أو الموقف فلا يصل بهم الاختلاف إلى تسفيه الآخر أو تحقيره أو إهانتته بل يسمع ويناقش، يحاور ويجادل، ثم يقبل أو لا يقبل، وإن سمع ما يضيق به الصدر أو يرفضه العقل يقابله بالحلم والصبر وسعة الصدر، بلا غمز أو لمز أو ازدراء، انتصاراً للنفس.

إن ما دعاني للكتابة حول هذا الموضوع هو ما نراه من حولنا في كل شارع، وكل حارة في بلداننا العربية من استخفاف مهين بحياة الإنسان وإزهاق لأرواحهم لأتفه الأسباب؛ إذ لو كان إحساسنا بكرامة الإنسان عميقاً ويسكننا في كل جزء من أرواحنا ومشاعرنا ولحمنا وعظمنا ونتنفسه في صباحنا وفي مساءنا لارتعشت الأيدي قبل الضغط على الزناد وانعقدت الألسنة وانكفأت قبل التجريح وكيل الإهانات التي لطالما كانت سبباً لكثير من الخصومات والمشاحنات، ولسادت بيننا مناخات الاحترام والتضامن والتكافل والتي هي من روافد المجتمع الآمن والقادر على مواجهة التحديات والتهديدات التي تطال الأرض والمسكن والهوية والانتفاء.

ثم للأسف إن هذا الموضوع الجلل (كرامة الإنسان) لم يلقَ الاهتمام الكافي والمطلوب من قبل مفكرينا ومثقفينا ولم يعطوه ما يستحقه من تأمل وتفكر وتدبر رغم تبوئه مكاناً مهماً وبارزاً في آيات الكتاب الكريم وسنة رسول الله ﷺ العملية، فلا عجب بالتالي ألا تتجاوز هذه العبارة حناجر باقي الناس إلى أعماق وعيهم حتى تستغرقه كله أو على مشاعرهم ووجدانهم حتى تتخللها كلها.



لذا لم تفرغ له المساحات اللائقة به والجدير باستحقاقها في أدبياتنا العربية والإسلامية إلا لمأماً أو عرضاً علماً بأن من مقاصد القرآن الكريم تقرير كرامة الإنسان ورعاية حقوقه المادية والمعنوية؛ إذ إن حفظ كرامة الإنسان تأتي في المرتبة الثانية في قائمة الضرورات الخمس بعد حفظ الدين لما تكتسبه من أهمية وخطورة من وجهة نظر الإسلام، بل حتى إن الدين والشرعية أتيا للحماية وتأمين كرامة الإنسان وسعادته وتطوره، والنفس - كما هو معلوم - تُحفظ مادياً بحمايتها من التلف والهلاك وتُحفظ معنوياً بحماية كرامتها ورعاية حقوقها؛ فقد تسلب حياة القاتل قصاصاً وقد تسلب بالحبس جزاءً، لكن كرامته لا تسلب منه البتة ولا بأي حال من الأحوال.

9

في هذه التأملات أحسب أنني قد أجبت على أسئلة لربما كانت تختلج بها صدور كثير من الناس دون أن يطيلوا التوقف عندها والنظر فيها، أسئلة من قبيل: ما هي الكرامة؟ ولماذا الإنسان دون غيره يحظى بالكرامة؟ وما هو مصدرها؟ وهل تُسلب الكرامة من الإنسان تحت ظروف معينة؟ ومن الذي يتمتع بها؟ وهل هي حكر على أحد أو على طبقة أو عرق أو جنس أو دين؟

وما ستجدونه في هذه التأملات هو خالص اجتهادي، وقد أكون مصيئاً، فيكون التوفيق من الله ﷻ، وقد أخطئ في كله أو بعضه فهو يقيناً من نفسي، لكن رقي الإنسان العربي في سلوكه وفكره ووجدانه كان مقصدي وتطلعي.



ولا أخفيكم أن هذا الموضوع كان وجعي الذي تقلب فيه داخلي واعتلج به صدري ولا يهدأ اضطرابه إلا بعد أن سكبت على هذه الأوراق ما استقرت عليه تأملاتي وخلاصاتي.

في هذه التأمّلات سوف أدعي أن للكرامة الإنسانية تعبيرين، أحدهما ذو علاقة بالمشاعر وبالوجدان وأعماق النفس، وثانيها ذو علاقة بوعي الإنسان ونضجه الفكري، وينقسم إلى قسمين: الأول: الوعي بالكرامة (وعي الإنسان بكرامته)، والثاني: الوعي للكرامة (وعي الإنسان لكرامته)، التعبير الأول للكرامة سمّيته في تأملاتي (لباب الكرامة) وهو مولود مع الإنسان، ويشترك فيه جميع البشر والذي عبر عنه الخليفة عمر رضي الله عنه بقوله: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»⁽¹⁾.

وكما عبر عنه جان جاك روسو⁽²⁾ بقوله: «ولد الإنسان حرّاً، وهو في كل مكان مكبل بالأغلال».

أما التعبير الثاني للكرامة، والذي سمّيته ووعي الكرامة على شقيه، فهو مكتسب من الإنسان، ويتحصّله بكده واجتهاده وطول تأمله.

وإنني لأعرف أن حديثي عن كرامة الإنسان في مجتمعات تصان فيها كرامتهم، ويتوارثونها جيلاً عن جيل سيحسبون أنني أتباله أو أهذي أو أتساذج؛ إذ إن حالهم معي سيكون كمن يشرح لهم أن الإنسان

(1) عبد الستار الشايخ، الخلفاء الراشدون، ص: 158.

(2) جان جاك روسو، فيلسوف سويسري، فرنسي، كاتب في عصر التنوير، وكان له أثر كبير على الأحداث السياسية في أوروبا.



بلا تناول الماء يموت أو إن عليه أن يأكل كي يعيش! فلأنهم يعيشون الكرامة الإنسانية في تفاعلاتهم اليومية، وخلجاتهم النفسية فهي عندهم من البدييات والمسلّمات، والمعروفة لهم من الميلاد حتى الممات، فلا عجب إذاً أن يستهجنوا حديثي معهم عنها ويستغربوه ولا ألومهم.

أما المنهج الذي اتبعته في تأملاتي للوصول إلى الخلاصات والإجابات على التساؤلات السابقة فكان منهج الملاحظة والاستنتاج؛ إذ إن السجن وفري الفرصة لأعيش مع أسرى آخرين في حيز ضيق طوال 24 ساعة في اليوم لعشرات السنين، وكانت أعمار هؤلاء الأسرى تتراوح ما بين 18 عاماً و74 عاماً، ومن شتى مناطق فلسطين بما يحملونه معهم من تراث وتقاليد وعادات مختلفة، فكنت ألاحظهم ملاحظة علمية دقيقة في حزنهم وفرحهم، في غضبهم وحلمهم، في طيشهم ورشدتهم وأراقبهم عن كثب وبشكل واع ودقيق وردّات فعلهم وسلوكهم على ما يواجهونه من تحديات وإشكالات حتى باتت نفوسهم أو نفوس الكثير منهم مكشوفة لي، وبت إلى حد كبير أتوقع سلوكهم وأنكهنه.

لذا لا تستغربوا إذا ما أوردت الكثير من الوقائع والحوادث التي كانت تحدث معي أو أمامي في السجن كتأييد لما ذهب إلى فيه في هذه الدراسة، ومن ثم اعتمدت أسلوب الاستنباط، ولا سيما استنباط المعاني والدلالات من آيات الكتاب الكريم، وأحاديث رسول الله ﷺ.

وما توفيقي إلا بالله

الأسير / محمد سعيد حسن إغبارية

سجن ريمون





تعريف الكرامة

أولاً: معنى الكرامة في اللغة

الكاف والراء والميم أصلٌ صحيح له بابان: أحدهما شَرَفٌ في الشَّيْءِ في نفسه أو شرفٌ في خُلُقٍ من الأخلاق. يقال رجلٌ كريم، وفرسٌ كريم، ونبات كريم. وأكرمَ الرَّجُلُ، إذا أتى بأولادٍ كرام. واستكْرَمَ: اتَّخَذَ عِلْقًا كريمًا. وكَرُمَ السَّحَابُ: أتى بالغيث. وأَرْضٌ مَكْرُمَةٌ للنبات، إذا كانت جيدة النبات. والكَرَم في الخُلُق يقال هو الصَّفَح عن ذنبِ المذنب. قال عبدُ الله بنُ مسلمٍ بن قُتَيْبَةَ: الكريم: الصَّفوح. والله تعالى هو الكريم الصَّفوح عن ذنوب عباده المؤمنين، والأصل الآخر الكَرَم، وهي القِلادة⁽¹⁾.

كرم: الكريم: مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ، وَهُوَ الْكَثِيرُ الْخَيْرِ الْجَوَادُ الْمُعْطِي الَّذِي لَا يَنْفَدُ عَطَاؤُهُ، وَهُوَ الْكَرِيمُ الْمُطْلَقُ، وَالْكَرِيم: الْجَامِعُ لِأَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَالشَّرَفِ وَالْفَضَائِلِ. والكريم. اسمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحْمَدُ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَرِيمٌ حَمِيدُ الْفِعَالِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ... قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: كَرُمَ الْفَرَسُ أَنْ يَرِيقَ جِلْدُهُ وَيَلِينُ شَعْرُهُ وَتَطْيِبَ رَائِحَتُهُ. وَقَدْ كَرُمَ الرَّجُلُ وَغَيْرُهُ، بِالضَّمِّ، كَرَمًا وَكَرَامَةً، فَهُوَ كَرِيمٌ وَكَرِيمَةٌ وَكَرَمَةٌ وَمَكْرَمٌ وَمَكْرَمَةٌ⁽²⁾.

(1) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، ج 5، ص 171 - 172.

(2) لسان العرب، ابن منظور، ج 12، ص 510.



ثانيًا: حقيقة الكرامة في القرآن الكريم

بعد أن أوردت معنى الجذر الثلاثي للكرامة في أمهات الكتب ومعاجمها الأساسية، أردت أن أورد معاني الاشتقاقات لها في القرآن الكريم، ووجدت السمين الحلبي⁽¹⁾ أوردتها في كتابه عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، وهذا أبرز ما ورد في عمدة الحفاظ:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، عن ابن عباس: جعلناهم يأكلون بأيديهم ويتناولون غذاؤهم بها، وحكي أن أبا يوسف الحنفي رحمته الله أكل مع الرشيد يومًا فأحضر ملاعق، فقال: يا أمير المؤمنين بلغنا أن جدك عبد الله قال في تفسيره: جعلنا لهم أيديًا يأكلون بها، فترك الملاعق وأخذ بيده، وقيل: جعلناهم منتصبين القامة وغيرهم منحنيًا، وجعلنا لهم نطقًا وتمييزًا خلاف سائر الحيوانات.

14

وأصل الكرم سماحة النفس ببذل المال، وقيل: حسن الخلق، ثم الكرم إذا وصف به الباري سبحانه فهو اسمٌ لإحسانه وإنعامه المتظاهرة، وإذا وصف به البشر فهو اسمٌ للأخلاق الحميدة والأفعال الجميلة الظاهرة؛ فلا يقال: كريمٌ إلا إذا اشتهر بذلك وظهر منه ظهور متعارف، قال بعض أهل العلم: الكرم كالحرية، إلا أن الحرية تقال في المحاسن القليلة والكثيرة، والكرم لا يقال إلا في الكثيرة، كما فعل عثمان رضي الله عنه في تجهيز جيش العسرة، وكم من يتحمل حمالة يحقن بها دم قوم.

قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]

(1) السمين الحلبي: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، توفي سنة



إنما كان كذلك لأن الكرم من الأفعال الحميدة، وأكثرها ما قصد به أشرف الوجوه، وأشرف الوجوه ما قصد به وجه الباري تعالى، ولا يفعل ذلك إلا الأتقياء، فمن ثم كان أكرم الناس عند ربهم أنقاهم له، وكل شرف في بابه يوصف بالكرم، وعليه قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: 77]، وقيل: معناه جم الفوائد وكل ذلك مراد.

قوله: ﴿كَمْ أَتَيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: 7] ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: 26] أي جعلهم كرامًا.

قوله: ﴿كَرَامًا كَنِينٍ﴾ [الانفطار: 11] وصفهم بذلك لشرفهم في أبناء جنسهم، ونخلة كريمة أي طيبة الحمل أو كثيرته، وشاة غزيرة اللبن.

قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: 72] أي منزهين أنفسهم عن سماعه وعن قوله. وقيل: معرضين عنه قد أكرموا أنفسهم بعدم الدخول فيه، وقيل: غير مؤاخذين قائلين كقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63].

قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 74] كرمه أن خلص من متعبات الدنيا في تحصيله، ومن الشبه المقترنة بالمكاسب والأرزاق، ومن الأسقام العارضة من تناوله عند الإفراط فيه ومن الحرص عليه والشح به على مستحقه. وقيل: أكرم عما في الدنيا من الانقطاع والتنغيص والفساد.

قوله: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 27] قيل: مختوم، وكرم الكتاب ختمه، وقيل: كرمه كونه من عند كريم. وقيل: لبداءته فيه بسم الله الرحمن الرحيم.



ثالثاً: خلاصة معنى الكرامة

يقول الدكتور أحمد عمر⁽¹⁾: هي احترام المرء ذاته، وهو شعور بالشرف والقيمة الشخصية يجعله يتأثر ويتألم إذا ما انتقص قدره.

وكرامة الإنسان: مبدأ أخلاقي يُقرّر أنّ الإنسان ينبغي أن يعامل على أنّه غاية في ذاته لا وسيلة، وكرامته من حيث هو إنسان فوق كلّ اعتبار⁽²⁾.

وقال الباحث والمفكر المصري الدكتور راغب السرجاني⁽³⁾: كرامة الإنسان هي سر وجوده في هذا الكون، كما هي سر حياته وإنتاجه وإبداعه وأساس كرامة الإنسان هي حماية حقوقه وممتلكاته وعدم المساس بها أو الانتقاص منها؛ لأنها جزء لا يتجزأ من طبعه وخلقه وخلقه.

مما تقدم أستطيع أن أخلص إلى التعريف الإجمالي لكرامة الإنسان:

هي مجموع ما تحمّل الإنسان مما يُحمد عليه من الصفات البرانية والمعاني الجوانية الملازمة له، ما جعله أفضل من كثير من المخلوقات، بحيث المعاني الجوانية تكون روحية وعقلية ونفسية فيما صفاته البرانية تكون صورته وهيبته ونطقه المبين، ويولد معه بالضرورة منذ الولادة الشعور المتنامي بالاعتزاز بالنفس وتقدير الذات.

(1) أحمد عمر: أحمد مختار عبد الحميد عمر، أستاذ سابق للغة العربية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة، توفي عام 1424 هـ.

(2) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر، ج 3، ص 1923.

(3) راغب السرجاني: ولد عام 1964 م بمصر، وحصل على شهادة الدكتوراه عام 1998 م، يعمل أستاذاً في كلية الطب في القاهرة.



منشأ كرامة الإنسان

لقد أراد الله ﷻ أن يجعل له في الأرض خليفة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

وقد وقعت إرادة الله ﷻ على آدم ليكون هو خليفته في الأرض وما عليها ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: 69].

ولكي يستطيع هذا الإنسان خليفة الله في الأرض النهوض بأعباء وتكاليف الخلافة لم يتركه في فراغ وفضاء خاوٍ لا حيلة له فيه ولا قدرة؛ بل طَوَّعَ له ما في السموات وما في الأرض من مقدرات وخيرات وطاقات يستعين بها في مهمة الاستخلاف في الأرض، وهذه الخيرات المخترنة في الأرض والسموات ميسرة الاكتشاف والاستخراج، ومن ثم توظيفها بجهده وعقله لأجل النهوض بمسؤولياته وتلبية حاجاته ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا﴾ [لقمان: 20].

وعملية اكتشاف طاقات الأرض وخيراتها تحتاج إلى مكتشف أو دوافع للاكتشاف تحركه وتدفعه دفعًا نحو البحث والتقصي والتعلم للوصول للحقائق والقوانين التي تشبع فضوله وجوعه.

إن المكتشف هو الإنسان خليفة الله ﷻ في الأرض، وبشكل أدق عقله وقوته المفكرة فيه؛ إذ يشكل عقله الذي به يجمع وينظم، يحلل ويركب،



يخطط ويجرب، يستدل ويستتج، مدفوعاً بما فطر عليه شغفه لاكتشاف المجهول وخوض غماره كحامل قنديل إضاءة في وسط عتمة موحشة يبحث وينقب عن عزيز مفقود.

ذلك كله في سبيل إعمار الأرض وحمايتها من الخراب والدمار الذي يسببه جشع بعض الأقوياء الذين لا يعرفون الشيع، وأيضاً في سبيل بناء كل ما يحتاج إليه الإنسان لتأمين الحياة الكريمة العفيفة والعامة بالأمن والطمأنينة والسعادة حتى يتسنى له الوصول للحقائق الكبرى بحرية، وأجلها وأشرفها معرفة الله ﷻ ووجدانيته؛ لأنه متى ما توفرت للإنسان حاجاته المادية المريحة سيجد الوقت الكافي للبحث والتعلم والتأمل للوصول إلى الحقائق والعلوم التي تعينه على الخلافة في الأرض ومواصلة العمارة البانية قال تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]، ويتبين لنا أيضاً من القرآن أن النهوض بمسؤوليات الخلافة في الأرض بأمانة واستقامة والقيام بأعمال ونشاطات الإعمار لتأمين سعادة الدنيا والآخرة للإنسان الفرد والبشرية قاطبة، يعد تماهياً مع إرادة الله ﷻ وعبادة من أجل العبادات ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

فأي شيء يصدر عنك أيها الإنسان بقصد النهوض بمسؤولية الخلافة وعمارة الأرض والمضي بها قدماً نحو الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة طاعة وعبادة لله ﷻ، فأيا فكرة أو رأي أو عمل من إصلاح أو تصليح أو بناء أو تطوير أو إبداع أو إنتاج يقع في ضمن إطار الخلافة والعمارة هو من العبادات والطاعات لله ﷻ بالمقابل فإن التخريب والتدمير والفساد في الأرض والأضرار بالأملاك أو الأفراد أو الجماعات هو إذا



عصيان الله ﷻ ﴿وَلَا تُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 56].

فلا يحسبَنَّ أحد أن الخلافة في الأرض منحصرة ومختصرة على من يشغل منصب رئيس الدولة أو الخلافة أو الإمام، وبلا ريب إن كل فرد في المجتمع منوط بدور الخليفة؛ لأن الفرد هو المخاطب والمكلف بالنهوض بهذا الدور، وكل تبعًا لطاقته، فالخليفة الذي يقوم بمنصب رئاسة الدولة تتسع مسؤولياته وواجباته لتشمل ليس سائر مواطن الدولة وكل ما يقع في نطاق دولته وليس نفسه فقط.

ولذلك وحتى يستطيع الإنسان أن يفي بمسؤوليات الخلافة والإعمار في الأرض فقد كرمه الله وزوده ربنا ﷻ كما قلنا بآلة العلم والفهم والإدراك (العقل والحواس)، ويتجلى هذا التكريم لآدم عليه السلام من الآية الكريمة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 31 - 32)، الله ﷻ علم آدم ﷺ الأسماء كلها بما أودع فيه من آلة للعلم والتعلم، وليلاحظ أيضًا كلمة (كلها) في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، أي أن الإنسان وهب من القدرات العقلية والذهنية ما يستطيع بها أن يستقصي كل شيء علمًا.

ونلاحظ هنا أيضًا نوعان من الإشارة بأن الإنسان سيكون تواقًا دومًا للإحاطة علمًا ومعرفة كل شيء يلاحظه ويحسه، وحتى إنه يتحرق شوقًا لمعرفة كل ما وراء الحس والطبيعة (الميتافيزيقا)، أو الذي لا يزال في عالم الإعلام أو الخيال أو ما وراءهما.



وأفضل من عبر عن هذه النزعة التي لدى الإنسان الكاتب البريطاني الشهير جورج برناردشو: «أنتم ترون الأشياء وتساءلون لماذا؟ أما أنا فأحلم بالأشياء التي لم تكن أصلاً وأسأل لماذا لا؟»⁽¹⁾.

فلا غرو إن وصل الإنسان بفضوله وتطلعه إلى ما لا تراه العين المجردة كالذرة وما دونها، والكواكب والأجرام السماوية البعيدة عن مدى اليد وبصر العين.

أي إن الله ﷻ قد استخلف آدم ﷺ في الأرض دون أن ينقصه شيئاً لأجل القيام بالأمانة الكبرى في الخلافة والإعمار على أكمل وجه إذا ما تسلح بالتواضع والاستقامة.

فاختصاص الله ﷻ آدم ﷺ بالخلافة في الأرض، وبالعقل وبملكاته النفسية والقلبية من عزيمة وإرادة حرة وبالتالي بإعمارها هو تكريم عظيم من الله ﷻ للإنسان وأقول للإنسان؛ لأن تكريم الله ﷻ لم يكن لآدم ﷺ وحده وإنما لآدم ﷺ ولبنيه من بعده لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَحْشِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

وسيقى هذا التكريم من الله ﷻ لجنس الإنسان ما بقيت الشمس والقمر؛ إذ إن الآية الكريمة واضحة أشد الوضوح بتقرير هذه الحقيقة، فمطلع الآية يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وبنو آدم هم المتوالدون والمتكاثرون من بعده إلى يوم الدين، وقوله ﷻ: «كلكم من آدم وآدم من تراب» [رواه أحمد].

(1) إيهود أولمرت، يظهر المتكلم، ص 575.



إن ما ذكر أعلاه من اختصاصات مكرمة لآدم عليه السلام، والتي ميزته عن باقي المخلوقات بلا تنازع ما هي إلا تبع للكريم الأكبر والأعظم والأجل للإنسان، وهو تفردّه وتميزه بالنفخة العلوية المباركة التي أودعها الله عز وجل في الجسد المادي، المخلوق من الطين ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ﴾ [ص: 71 - 72].

بهذه النفخة ارتفع هذا الجسد من مستوى وضيع إلى مكان عليّ، وبها صار الإنسان إنساناً، روحاً وجسداً، يتطلع دوماً إلى الرقي والعلو؛ إذ إن النفخة التي فيه وهي الفرع تشده وتدفعه دفعاً إلى الاتصال بالأصل، وإلى ذلك السمو وإلى ذلك الكمال، وكلما سما بروحه وترفع بأخلاقه وعلا بأفعاله كان بربه أعرف وإليه أقرب وبإنسانيته أكمل.

فبفضل مؤهلاته هذه التي قد ترفعه مكاناً عليّاً، أمر الله عز وجل ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام، فسجدت الملائكة لآدم عليه السلام سجود تكريم، وهو أيضاً نوع من الاعتراف بعلو منزلته عليه السلام وعلمه حيث تسكن فيه نفخة من روح الله عز وجل.

بهذه النفخة الجليلة تميزت طريق الإنسان عن سائر الكائنات الحية سالكاً بها طريقاً يتعلم فيها ويغير وينمي فيها ويطور، صعوداً ورقياً نحو بلوغ الكمال الإنساني في هذه الحياة إن هو أراد، فيما الكائنات الحية الأخرى تراوح مستواها الحيواني لا تتعداه ⁽¹⁾.

(1) سيد قطب في ظلال القرآن ص 2140.



صحيح إن الإنسان يتفق مع الحيوان في خصائص العنصر الطيني فالطرفان خلقا من عناصر الأرض، لذا فيها يشتركان في الحاجات الإنسانية لتأمين بقائهما على هذه الأرض من طعام وشراب ومسكن وجنس.

غير أن الإنسان بفضل تميزه بالنفخة العلوية يختص بمطالب وحاجات أساسية أخرى غير موجودة لدى الحيوان: وهي روحية وعقلية ونفسية، ما يجعله إنساناً متميزاً، ولكي يبقى كذلك ينبغي تلقيه هذه المطالب أو الحاجات وتأمينها له حتى يتسنى له اجتياز طريقه واستمرار تطوره وبالتالي أن يتحمل تبعات اختياراته.

وإن من أهم تجليات وآثار هذه النفخة العلوية: العقل، لدرجة أن بعض المفسرين يرى أن الإنسان صار إنساناً، وكُرم عن الكثير من المخلوقات بالعقل لأنه هو مناط التكليف⁽¹⁾.

22

من هنا يتضاعف وجوب حماية العقل من الاعتداء والسعي المتواصل على رعايته وتنميته لاسيما عند الناشئة حتى تحمي إنسانية الإنسان التي أرادها الله ﷻ له فبالعقل يفكر الإنسان ويختار، ومن خلال حقه الذي منحه له خالقه ﷻ بأن يتمتع بحرية التفكير والإرادة والرأي والاختيار والتعبير عنها بحرية - لا يجوز مصادرتها - لأن في مصادرتها اعتداء على إنسانيته التي بها خصه الله ﷻ ويميزه عن سائر خلقه، وبالتالي هو اعتداء على إرادة الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ أراد أن يكون حراً، حرّاً في إرادته، حرّاً في اختياراته، حرّاً في تفكيره، وحرّاً في رأيه، وإن أمره بأن يتبع منهجه وشريعته ونظامه في إدارة الحياة وتنظيمها لكي ينال سعادة الدنيا والآخرة، بيد أن الله ﷻ أبقاه حراً في اختياره مع تحمل مسؤولية هذا الاختيار.

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، ص 2141.



أليس هذا بأعظم تكريم للإنسان وأشرفه بأن تركه حرًا في اختياراته؛ بل هو من أعظم وأجل تكريم أن يتاح له وحده دون غيره من المخلوقات حرية الاختيار، ومسؤوليته وحده بتحمل تبعه اختياره ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: 18]، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى﴾ [النجم: 39 - 41].

والإنسان يحلل ويميز بعقله الحر ويوازن، ثم يقرر ويختار الأفضل له والأنسب بمحض إرادته وحصيلة قناعاته دون فرض أو إكراه من أحد حتى لا يختبئ وراء دعوى أن حقه في الاختيار قد سلب منه درءًا بنفسه عن تبعه اختياره وتحمل آثاره.

ونحن هنا نعي أهمية وجوب تأمين الحرية للعقل الإنساني حتى لا يتبقى له حجة أمام الناس، ثم أمام ربه ﷻ يوم الحساب الأعظم.

نستطيع أن نقول إنه كتب على الإنسان أن يكون كادحًا ومكافحًا منذ ولادته، عليه أن يشق طريقه بنفسه بوسائل خاصة منحت له خصيصًا لهذا الغرض: عقله وحرية في التفكير والاختيار مزودًا بقوى نفسية وروحية تعينه على تحقيق تطلعاته وخياراته بما فيه إرادته وعزيمته.

ما عليه إلا أن يحشد هذه الوسائل ويستنفذها حتى أقاصي طاقاتها، فعليه أولاً أن يفتش عن البيئة التي تحمي هذه الوسائل وتحرص عليها وأن يناضل في سبيل توفرها، وعلى المجتمع ثانيًا أن يؤمنها لأفرادها.

وإننا لندرك أن ثمة من لا يؤمن بالروح ولا يقر بالنفخة العلوية، بيد أنه في لحظة تأمل صادقة تجده يقف منبهراً ذاهلاً أمام ما يتمتع به



الإنسان من قدرات عقلية ونفسية فذة، ويقر معترفًا بتفرد الإنسان بهذه القدرات الفائقة التعقيد عن سائر المخلوقات وتميزه عنها.

والمنصف منهم غير المتعجرف أو العنصري يشعر نفسه مسكونًا رغمًا عنه في صميم أعماقه باحترام غريب لهذا الكائن الفريد، الكائن الذي لا يعلوه جمال البتة في تصميمه التشكيلي الذي قرره الله ﷻ للإنسان؛ إذ لو خرج عنه الإنسان قيد أنمله سيفقده جماله وبهاءه، فالله ﷻ قد خلق الإنسان بيده، وسواه وصوره على أحسن هيئة، ولن تحصل صورة الإنسان مهما أعملت فكرك وخيالك أفضل من الهيئة التي خلقه الله ﷻ عليها، ولطالما من باب التجربة التخيلية حاولت أن أعدل وأبدل وأغير في هيئة الإنسان وتصميمه بحيث يكون فيها على صورة أفضل وأجمل وأحسن، فلم أجد نفسي إلا عاجزًا مذهولًا أجزر ورائي أذبال الخيبة والهزيمة.

24

حاولت ذات مرة أن أجعل له عينيْن من الخلف من رأسه إضافة إلى العينين الأماميتين أو بدونهما أو على الجبين، فوجدت نفسي قد شنت صورته وشوّهت هيئته، ونابتني قشعريرة مشمّزة من صورته المستحدثة تخيليًا، وعلى التو عدت فارًا إلى صورته الأصلية التي خلقه الله ﷻ عليها، مستسلمًا ومسلمًا بعجزِي.

وإنك إن رأيت تفاوتًا في الجمال بين البشر فإنك من حيث صورة الإنسان وهيئته لن تحصل على تصميم يعلو جمالًا وحسنًا للصورة التي خلّق عليها الإنسان مهما بلغت من قوة التخيل.

ويتجلى تكريم الله ﷻ لآدم عبر تسويته بهذه الصورة أنك لا ترى



الإنسان على سبيل المثال لا الحصر يتناول غذاءه من فيه مباشرة من على الأرض، كما الحيوان، وإنما يعالجه ويطبخه حتى ينضج ويتهياً ويغنيه بالمتبلات والمقبلات، ثم يضعه في صحون مناسبة مرتبه على نحو جميل على مائدة الطعام مزدانة بشرشف خاص ثم يتناول غذاءه، ويزداد المشهد جمالاً وإشراقاً إذا ما قارنته بخيالك بصورة الحيوان وهو يأكل كما يعرف الحيوان والفرق عظيم جد عظيم.

وهل حدث أن حاولت ذات مرة أن تتناول غذاءك من فمك مباشرة من على الأرض أو حتى من الصحن الموضوع على المائدة؟ كيف سيكون منظرك وأنت على هذه الصورة؟ وماذا سيكون موقف من يشاهدك من الناس؟ بالطبع لن تلقى منهم غير الضحك والسخرية، وأنت أصلاً ستأنف وتستنكف حتى عن المحاولة؛ لأن كرامتك لا تسمح لك بذلك سواء كنت مختلياً أو أمام الناس.

وإذا ما حدث أن حاولت إجبار أحد على تناول غذاءه مباشرة بفمه من على الأرض، فإنه سيرفض وسيثور عليك ثورة لا تعرف الهوادة؛ لأنه يعتبرك أهنته وجرحته كرامته بمجرد أنك فكرت بطلب ذلك منه، فما ظنك لو أجبرته حقاً فإنه لربما يقا تلک قتالاً لا يبالي معه إن كان السجن أو الموت مصيره.

ومرة أخرى سوف أسوق مثلاً وقع فعلاً معنا في السجن، السجنون الصهيونية منذ احتلال الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة عام 1967م، وهي تعج بالأسرى الفلسطينيين الذين قاوموا الاحتلال وتم اعتقالهم



وأسرهم، مجموع الأسرى من جميع الفصائل الفلسطينية، والذين اصطُح على تسميتهم بالحركة الوطنية الفلسطينية الأسيرة، واختصارًا الحركة الأسيرة، يشكلون حالة نضالية منظمة موحدة قادرة، ولطالما نهضوا بأعمال نضالية جماعية ناجحة لانتزاع حقوقهم كأسرى سياسيين من السجن، وبعد عدد من النجاحات للحركة الأسيرة ضافت بهم مصلحة السجون ذرعًا، فعمدت إلى نقل وعزل الكثير من كوادر وقيادات الفصائل الفلسطينية الموزعة في السجون وجمعتهم في قسم منفرد ومعزول عن باقي الأسرى وعن العالم الخارجي وذلك في سجن هداريم وسط البلاد.

وفي محاولة منها لكسر الروح النضالية لدى هذه القيادات وتهشيم معنوياتهم؛ كانت قد وضعت كرامتهم هدفًا لهجمتها عليهم؛ إذ إن نظام السجون قائم على أن يتناول الأسرى وهم في غرفهم أطباق الطعام المخصصة لهم عبر فتحه صغيرة تسع لمرور الأطباق تقع في وسط الباب، أي لا يحتاج الأسير لأن ينحني كي يتناول طعامه منها، بيد أنه في هذا القسم كانت الفتحة موجودة في أسفل الباب، ولكي يتناول الأسير حصته من الطعام كان عليه أن ينحني ويتناول أطباقه من محاذاة قدميه وقدمي السجن أو عامل المطبخ.

بالطبع فإن الأسرى بشموخهم لا يسعهم تقبل هذا الإجراء المهين الذي يطال أعماق لباب كرامتهم الشخصية والوطنية لحظة واحدة، فما كان منهم إلا أن أعلنوا إضرابًا مفتوحًا عن الطعام ضد إدارة السجن حتى تخضع لمطلبهم العادل والوحيد ورد الاعتبار لكرامتهم، وفعلاً بعد أيام معدودة من الإضراب اضطرت الإدارة أن تستجيب وتخضع لمطلبهم والوحيد، فأقرت بفتح الباب عند تناول الطعام ثلاث مرات يوميًا ثم



إغلاقه، وهذا حدث في شهر مايو (أيار) من العام 2004 م.

هذه الحادثة اللافتة تبرهن عمق حساسية الشعور بالكرامة لدى الإنسان، وجهوزيتها الدائمة واليقظة للشورة ما إن تتهدد أو تتعرض للإهانة، لقد انتفض الأسرى وأضربوا عن الطعام لمجرد إجبارهم على الانحناء لتناول حصصهم من أطباق الطعام من الفتحة في أسفل الباب، ولك أن تتخيل ماذا ستكون ردة فعلهم لو حاولوا إجبارهم على تناول غذائهم مباشرة بأفواههم من على الأرض!

نال الإنسان هذه الكرامة أيضًا بأن خصه خالقه ﷻ بتلك الصورة والهيئة الجميلة المتناسقة، وأفرده بها من دون باقي الكائنات الحية. ففي دنيا الناس إذا كان شخص ما مفضلًا على غيره لدى شخص آخر فإنه يكرمه بشيء يخصه به ويميزه عن الآخرين فسيقول من حوله إنه كرمه وفضله علينا أو يقولون إنه يحبه أكثر منا.

فالإنسان إذاً أيًا كان هذا الإنسان كريم عند الله مفضل على كثير من خلقه وإلا لما ميزه وأفرده عن سائر المخلوقات في أحسن هيئة وصورة. ولذلك نجد إبليس يحتاج ويحتج على تكريم الله ﷻ لأدم عليه السلام حسدًا واستكبارًا وعلوًا ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ كَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا ﴿٦٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 61 - 62].

فإبليس لعنه الله يقر أن آدم ﷺ قد كرمه الله ﷻ لكنه استكبر وعصى، وفي سورة أخرى المولى ﷻ يخاطب إبليس: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ أَتَكْبَرُ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: 75].



يظهر بذلك سبحانه وتعالى تكريمًا آخر لآدم عليه السلام بيديه سبحانه ما يستوجب سجوده له، كما سجدت الملائكة لآدم عليه السلام من قبل.

فما أعظم هذا التكريم وأشدّه وقعًا على القلب ما إن يستحضر هذا الإنسان في لحظة صفاء في هدأة ليل المسحة الربانية بأن خلقه بيديه عليه السلام إلا وتسري في بدنه حتمًا قشعريرة الرهبة والمهابة والخشوع والمحبة لله عليه السلام ويزيده شعورًا عميقًا بكرامته عليه سبحانه.

ولتقريب المعنى: فلو أنك زرت عزيزًا عليك كبيرًا في السن والقدر _عمتك مثلاً_ ثم غابت وعادت وهي تحمل لك كوبًا من الشاي فإنك لن ترفضه عندما تسمعها تقول لك: إنه من صنع يدي، صنعته بيدي مخصوصًا لك من دون باقي الضيوف، لمعزتك ومحبتك عندي، أتراك ترفضه؟ أم تُسرّ وتحتسيه سعيدًا وتشكرها؛ لأنها خصتك به دون غيرك، وكرمتك علنًا بعنايتها الخاصة! أليس هذا خطبًا جلالًا حريًا للإنسان أن يعمق التأمل فيه؟



كرامة الإنسان: شعورًا ووعيًا

إن الكرامة كما تم تعريفها آنفًا هي بمثابة أصل الكرامة بحيث يتساوى فيها الناس، فالإنسان أيًا كان هذا الإنسان: ذكر أو أنثى، أبيض أو أسود، مؤمن أو غير مؤمن، يولد أو تولد معه كرامته.

ولأصل الكرامة تعبيران:

الأول: له علاقة بمشاعر الإنسان ووجدانه وانفعالاته، والذي أسميته (لباب الكرامة) أو الشعور بالكرامة.

وهذا اللباب الذي لدى الإنسان هو الذي يشكل قاعدة عواطفه ومشاعره؛ إذ منها تنبعث دوافع الإنسان وانفعالاته، وتساهم في تحديد تصرفاته واتجاهاته، وهذا اللباب هو الذي يُولد مع الإنسان، ويتساوى فيه جميع البشر.

الثاني: وهو الذي له علاقة بوعي الإنسان، مكتسب من قبل الإنسان، وينقسم إلى قسمين:

أ. الوعي بالكرامة، أي وعي الإنسان بكرامته.

ب. الوعي للكرامة أي وعي الإنسان لكرامته.

وهذا الوعي على بعديه ينضج مع مرور الأيام والسنين، ومرهون



باجتهاد الإنسان وهو على كل حال يتأخر في تحصله عن الشعور بالكرامة (لباب الكرامة).

ومن شأن الوعي للكرامة أن يُعقلن ويهذب اندفاعات (لباب الكرامة)؛ إذ لهذا اللباب لدى الإنسان تعبيرات اندفاعية وانفعالية تلقائية تحصل له منذ طفولته وهو لا يعي بعد كنهها، وقد تبقى اندفاعيات (لباب الكرامة) مسيطرة على سلوك الإنسان أو غالبية على تصرفاته ما لم يتحصل له الوعي بكرامته والوعي لكرامته.

وهذا ما سأتناوله لاحقاً في الفصول التالية -إن شاء الله-، لكنني أستبق وأزعم أن قلة من الناس من حققوا الوعي لكرامتهم، وقلة القلة منهم الذين وصلوا الوعي لكرامتهم (كما سأعرفهم لاحقاً)، وهم صفوة الناس وخيارهم. أما الآن فلسوف أسلط ضوء تأملاتي على (لباب الكرامة).

لباب الكرامة:

يُولد الإنسان وتولد معه كرامته، فالطفل ينمو وينمو معه في كينونته وتركيبته النفسية شعور بأهميته وبعزة نفسه واعتداده بها وبرغبة نامية في رسوخها في تلقي احترام وتقدير الآخرين له واهتمامهم به، ويتوقع ذلك منهم ويتنظره وهذا ما أحب أن أسميه كما أشرت سابقاً (لباب الكرامة)، وهذا اللباب يصل إلى درجة الفريضة ويجب أن نحمله ونرعاه ونصونه بالإنسان منذ طفولته ونعمل على ترشيده وتهذيبه؛ لأنه يُعد من أهم ما يُولد مع الإنسان ولما له من أثر وتداعيات على مستقبل الشخص نفسه وعلى مجتمعه.



ونقول إن حماية (لباب الكرامة) فريضة؛ لأن هذا اللباب قد يتهدد بالسجن من جهة خارجة عن ذات الإنسان والتي تتمثل في انتهاكات الاحتلال مثلاً وإجراءاته المذلة والمهينة للخاضعين تحت وطأته، والهادفة إلى سحق (لباب كرامته) وطمس شخصيته كطريقة الاعتقال المهين، والانتظار على الحواجز والمعابر لساعات طوال والمماطلة والتقطير في إعطاء التصاريح والأذونات لكل شيء لا تتسهل الحياة إلا به، وغيرها الكثير الكثير؛ لكي يفقد الإنسان الفلسطيني بالتالي تقديره لذاته، وإذا ما فقد الإنسان تقديره لذاته⁽¹⁾ فبالضرورة ستكون إسقاطاته السلبية باتجاهين داخلي وخارجي:

داخلياً: نحو المجتمع إذ إن هذا الإنسان الفاقد تقديره لذاته سيضيق خلقه ويتضاءل حلمه عن سماع الآخر المخالف له أو المختلف معه، ولا سيما مع أهل بيته، فيصب عليهم نقمته وحنقه الذي تراكم في داخله، كمحاولة منه لإعادة توازنه النفسي وتقديره لذاته، حيث يظن واهماً أنه بهذه الطريقة لربما يرمم ويحبر ما كسره الاحتلال في داخله، أو لمجرد التنفيس لما يختلج في صدره من شعور نقص أو كبت أو قهر، بينما الإنسان دون التقدير العالي لذاته يشعر أنه قوي داخلياً، ومقتدر على التسامح مع الآخرين وتحمل انتقاداتهم أو أخطائهم بمرونة ظاهرة وبنفس كبيرة من غير تصنع أو تمثيل.

وخارجياً: وإن بدا ظاهرياً قوياً لا ينكسر، وكانت هتافاته رنانة وملهبة بالحماس، غير أنه يتحاشى الصدام والمواجهة، وإذا ما اضطّر

(1) تقدير الذات: هو مصطلح نفسي، وله مستويان، الأول تقدير عال للذات والثاني، تقدير منخفض للذات، والتقدير العالي للذات يعني أن تكون نظرة الشخص للذات إيجابية بأنه قوي ويمتلك قدرات، مؤهل لكل مكاره مرموقة، محترم ومقدّر



أن يواجهه أو يقاوم ما يلبث أن يتراجع وينكسر؛ لأنه لا يركز على الثقة بالذات التي من المفترض أن يمده بها تقديره لذاته السليب.

ثم إن الاحتلال يحصل من حالة فقدان التقدير للذات لدى أبناء الشعب الفلسطيني أن هؤلاء تبعاً لنظريات علم النفس⁽¹⁾، سيكونون أدوات طيعة وسلسلة الانقياد وسهلة الاتباع، يرضون الحياة المحايدة على طريقة المثل «امشي جنب الحيط وقول يا رب السترة» أو «مالي وماهم». ولا يحتاج الاحتلال أكثر من هذا حتى يؤمن بقاءه واستمرار إخضاعه وسيطرته على الشعب والأرض بأقل التكاليف.

وكذلك قد يتهدد (لباب الكرامة) بصورة خارجية من ذات الإنسان من قبل الوالدين إذا تعاملوا مع طفلهم بالعنف والشتم والإهانة، بدل أن يلفوه ويحيطوه بالأمن والأمان والمحبة والرعاية الحيوية كلها لنموه النفسي السليم. وهنا حقاً تكمن خطورة أن يترعرع الطفل في محيط أسري يسوده الخوف والبؤس والعنف كأن يتعرض الطفل للضرب الدائم وللشتم والإهانة على نحو مستمر الذي يصيب (لباب الكرامة) بمقتل وستكون له آثار كارثية وتدميرية لشخصيته، بكل جوانبها في مراحل عمره اللاحقة، ولو سئل الطفل حينئذ عما يشعر به في داخله لما تسنى له القدرة على تحديد هوية الشيء الذي تضرر في داخله، لكن لاشك أن تعبيراته المتفجرة عنفاً ستتجلى بكامل طاقتها وسخطها لاحقاً ولا يلوم الوالد حينها إلا نفسه إذا ما تحول ابنه حالماً يكبر إلى وحش كاسر لا يعرف الرحمة لا بأبيه ولا بمجتمعه، كرد فعل عما تعرض له في

(1) راضي الوقفي، مقدمة في علم النفس، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2004، ص 347.



صغره ، وكمحاوله منه لإعادة الاعتبار لكرامته ولشخصيته التي ديست آنذاك .

في السجن التقيت مع بعض الأسرى ممن كانوا قد تعرضوا في صغرهم للضرب والإهانة المتواصلة من آبائهم لسبب أو لغير سبب، ويصف لي أحدهم كيف أن أباه كان يفتعل أي سبب لضربه وإهانته أمام والدته التي لا حول لها ولا قوة إلا بالله، وأمام إخوته وكيف أنه حينها كان لا يعرف ماذا يفعل، فهو في نهاية المطاف يقف أمام والده ويظل واقفاً كالأبله الذي يبدو لا يعرف شيئاً ويشعر أنه لا شيء وبلا كيان وبلا شخصية، وكان يشعر أنه صفر، ثم استفرد معي بصريح العبارة كيف تمت بداخله الرغبة الجارحة في الانتقام ليس من والده فحسب، وإنما من المجتمع ومن عادات المجتمع اللامبالاة لديه، وأنه لما كبر قليلاً واشتدّ عوده تبلورت في نفسه إرادة التمرد على كل شيء، على كل محرم، على كل محظور، وعلى كل شيء مرفوض في حارته وبلده.

وفعلاً لم يترك شيئاً محظوراً اجتماعياً أو قانونياً إلا اقترفه وانغمس فيه ثأراً لطفولته المتهمة والمهمشة ونكاية بالمجتمع بلا استثناء، إلى أن هداه الله ﷻ، وقصة هدايته وتوقفه عن السقوط والتهمش الكامل محفوظة لدي ولا حاجة لذكرها هنا، لكن ما أحب أن أضيفه هو أن تعرّفني به عن كذب مكنتني أن أسبر غوره وأستشعر أنه لا يزال يعاني من كدمات ورضوض رواسب الماضي في أعماقه، وأنني بلا ريب لاحظت آثارها في سلوكه وتصرفاته بالرغم من محاولاته التستر عليها.



ومع ذلك، فإن الإنسان إذا ما تم سحق لباب كرامته من جهة خارجة عن ذاته، فهذا لا يعني البتة أن جذوة لباب كرامته قد انطفأت للأبد، بل تبقى ثاوية وقابعة تحت ما خلفه القهر والعنف والبطش من رماد، تتطلع إلى الانبعاث من جديد، وإن بدا لا يشعر به صاحبه أو لا يعي وجوده.

لكن ما إن يستشعر هذا الإنسان المسحوق لمسة الحنان والاهتمام والعناية حتى يتناثر الرماد وتأخذ الجذوة طريقها نحو الاشتعال، ولا يترث لباب الكرامة حتى يبدأ يتعافى على مهل وبتؤدة، وينمو الهويى كنمو النبتة التي تشق طريقها من تحت ركام الأنا المهدمة صوب نور الكرامة المستعادة وتقرير الذات.

34

وربما تجد تاريخياً من استمر أ فقدان لباب كرامته كالعبيد مثلاً، لدرجة أنه لم يفكر حتى بالهرب لكن جذوة اللباب التي تقبع داخله وإن كانت راجعة مؤقتاً، فهي تتوق دوماً إلى الكرامة الحرة والتي لبابها أصلاً مولود معه، فما إن تحدته عن حقه بكرامته وحرية حتى تنبعث من طويته أناة الشوق للكرامة وتتسابق من مقلته عبرات الحنين الساكن في أعماقه الإنسانية والممتد عبر القرون الغابرة، متصلاً بأبينا آدم أول إنسان حر كريم على وجه هذه الأرض.

وإذا ما تم تحرير هذا العبد، وعادت له كرامته التي تراكم عليها الذل والهوان، ما يلبث أن يبكي فرحاً وسعادة لا تضاهيها سعادة على وجه الأرض؛ لأنه باختصار عاد لإنسانيته الأولى الأصيلة والنبيلة، فلإنسانية



الحرّة طعم سام علوي لا يعرفه إلا من تذوقه بعد تحرره وانعتاقه وانبعائه من جديد.

لكن السؤال الأهم: هل من الممكن أن يسحق لباب الكرامة من داخل ذات الإنسان؟ نظرًا لعلمنا أن الإنسان يولد وتولد معه كرامته على بعديها: الشعور بالكرامة، واستعداد له لوعيه بكرامته.

أظن أن ثمة حالة واحدة يصدر سحق (لباب الكرامة) من داخل ذات الإنسان، فلا يبالي بعدها بالإهانة أو الاحترام، بالازدراء أو التقدير، وهو أصلًا لا يميز بينهما، وذاك من ولد مجنونًا لا عقل له أو قد جُنّ في حياته ولم يعد له عقل يعقل به.

بمعنى آخر: لا يوجد ثمة عاقل يتخلى طوعًا أو من داخل ذاته عن كرامته. فلإنسان إذاً حساسية مفرطة للباب كرامته وكلما كبر كبرت معه حساسيته لكرامته، لذلك ترى الطفل منذ طفولته الأولى، بفضل هذا اللباب يتأفف أو ينفر أو يرفض بالصراخ والبكاء إذا ما أكره على شيء لا يريده أو لا يحبه حتى وهو رضيع تراه يشاكل برجليه، وبكلتا يديه تعبيرًا لرفضه وانتفاضته دون أن يدرك هو كنه رفضه بعد بينما الكبير في العمر لفرط حساسيته للباب كرامته يغالي في احترام ذاته، وحفظ قدرها أشد الحفظ من اقتراف ما لا يجمل ولا يليق بها ويصونها بحمية شديدة مما قد يحط من قدرها ويتنقص من قيمتها، فتجده يأنف ويستنكف من مزاوله عمل أو إطلاق قول قد يعيبه ويشينه، ولا سيما أمام غيره ممن يعرف أو لا يعرف، وبعضهم يستنكف مختليًا لفرط وعيه لكرامته.



ومع ذلك يجعله شعوره بكرامته إذا ما حاول أحد أن يفرض عليه ما لا يريده أو لا يقتنع به عقيدة كانت أو فكرة أو رأياً أو فعلاً أو عادةً أو قولاً أو أي شيء أن ينتفض انتفاضة تسري رجتها في أنحاء جسده لا يكبحها عن التمرد والثورة شيء، لكن إذا ما كان المكره أقوى منه ويقدر أن يبطش به إن رفض فإنه لربما يخضع للإملاء مكرهاً ومجبوراً غير أن الضغينة والحق لا يكفان عن التنامي والتعاظم في داخله تجاهه، ويضممر له العداء، ويقلب له ظهر المجن، ويتربص به الدوائر حتى ينقلب عليه عند أول فرصة سانحة ثأراً لكرامته.

ولأن الإنسان لا يجب أن يكون مغلوباً على أمره، وأصلاً هذه الثورة تنفجر فيه على نحو تلقائي، وكأنها خط دفاعه الأمامي، فلباب الكرامة إذاً أقوى أثراً في النفس من كل شعور، وقد يثور أيضاً إذا ما نزلت به إهانة جارحه من أحد أو من جهة ما، وإن ثورته لكرامته قد تجعله يقف وجهها لوجه مع غريزة البقاء، فإما كرامته وإما حياته؛ إذ ما يهمه في هذه الحالة رد الاعتبار لكرامته التي شعر أنها قد ديسست وسحقت من الآخرين.

إذاً يمكننا القول أن لباب الكرامة هو الذي ينتفض ويحتاج في داخل الإنسان، وقد يتصرف هذا الإنسان حينها تصرفاً يخالف فيه الحكمة والمنطق مما قد يجعلك تتساءل متعجباً: أهذا العاقل الرزين الذي أعرفه يتصرف على هذا النحو؟ لأنه كما قلنا إن هذا الشيء فيه لباب الكرامة عندما يتعرض لإهانة ما ينطفئ حينها في الإنسان كل أنوار الحكمة والعقل لديه، وإذا ما كان ثمة شيء ما بمقدوره أن يلجمه ويحجزه عن ارتكاب حماقة أو سفاهة ما؛ ليس غير شيء واحد وهو مدى عمق وعيه لكرامته.



لذا لا نبالغ إذا قلنا إن الإنسان متى أكره على شيء أو نزلت به إهانة فإن جزءاً من إنسانيته قد تحطم وتصدع، ولا شيء يجبره سوى الانعتاق ورد الاعتبار، ويشعر بجزء آخر من إنسانيته قد تهدم وتهشم إذا ما منع من التعبير عما يعتمل في داخله أو يختلج به ضميره من رأي أو قناعة أو فكر؛ فإنه إن لم يستطع أو لم يرد أن يتمرد على الإكراه أو المنع، فهو بكل وضوح قد خسر خسراناً مبيناً حيث إنه قد خسر جزءاً مهماً من إنسانيته إذا ما تم استعباد هذا الجزء فيه.

فالإنسان الذي تخلى عن إرادة التمرد أشد إيلاماً وأبعد سقوطاً من الإنسان الذي لا يستطيع أن يتمرد على الإكراه أو المنع، فإنك في الحالة الأولى سوف ترى شخصاً مشوهاً على غير طبيعته، يمشي بيننا على هيئة إنسان وما هو بإنسان؛ إذ إن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا كان حراً أو مكافحاً لنيل حريته، ولا يرضى بحالة تغيّب إرادة التمرد إلا عبد.

أما الإنسان في الحالة الثانية الذي لا يستطيع التمرد مع اضطرام نيران إرادتها في داخله فيبقى محافظاً على إنسانيته حتى وإن قمع جزءاً منها وبدت ملامح الاستعباد على وجهه إلا أنها لم تتغلغل إلى داخله كما في الحالة الأولى، ولسوف تلتقط فلتات لسان تشي بحالته وإنه ما إن يجد الفرصة السانحة والأجواء المناسبة حتى يتمرد ويثور ثورة لحريته وكرامته.

وفي السجن قد عاش بيننا في السنوات الأخيرة أفراد من الذين ينتمون إلى «داعش» وكان من شروط قبول دخولهم إلى الأقسام التي نقطنها ألا يعبروا عن أفكارهم ولا يدعوا إليها في أوساط الأسرى، وتم الاتفاق

بين كافة الفصائل على إلزام أفراد «داعش» بهذا الشرط دون استثناء؛ إذ إن أفكار «داعش» ومنهجها قوبل بإجماع لافت على نبذها ومحاربتها، وهم قد قبلوا هذه الشروط على مضض بيّن؛ لما مسوه من وسط شبه معاد لما يحملونه من فكر ومنهج، وكان من نصيب الغرفة التي أسكنها أن تستوعب أحدهم، وقد أبدى هذا الأسير التزامه بالشروط وهي شروط تسلبه حرية الرأي والتعبير، وكنت كلما أختلس نظرة إلى وجهه في اللحظة التي لا يستطيع فيها أن يتوسع في حديثه عما يختلج به داخله من آراء نابعة من أفكاره أرى الاحتقان يعتصر وجهه والقهر يلجم فمه، وبالرغم من معارضتي الشديدة والشاملة لأفكارهم ومنهجهم فلم أكن أشعر بارتياح لما يحدث معه، وكان يحتلني التساؤل هل من حقنا سلب حريته؟ أليس هذا شكلاً من أشكال الاستعباد؟ فكان الموقف يزعجني جداً ويضيق به صدري ولا سيما أن استيعابه في غرفتنا قد واكب لدي اكتمال عملية اختمار ونضوج طويلة لموضوع كرامة الإنسان كحق إنساني أصيل، وقد تعمق فيه حسي ووجداني واستغرقني كلي، وصرت أمقت أي ضرب من ضروب سلب الحرية لأي إنسان، والذي يسلب ويجرد الإنسان من حرياته أيّا كان هذا الإنسان تتجلى فيه أشنع وأقبح امتهان لكرامة الإنسان.

وذات مرة قلت له: ما دمت في هذه الغرفة لك الحرية أن تقول ما تريد، فشعرت بأساير وجهه قد انفرجت وأنوار لباب كرامته قد بانت على سحنته وأشرقت، وشعرت به يخبر فرحة الانعتاق، وصار يتحدث بحرية دون خشية أو محاذير وتحسبات، غير أنه كان قد تحرر من الحذر حتى وهو يخالط الآخرين من خارج الغرفة، ولم يخطر بباله أن يصنع لنفسه ضوابط



خارج الغرفة لحساسية موقفه، فوصل به الأمر إلى التهادي والتطاول على الآخرين بآرائه المتطرفة والمتشددة التي لم تراع القواسم الوطنية المشتركة للفصائل كافة.

وحقًا حتى في معايير المتساهلة إنه قد تجاوز واعتدى، وفي نظرهم أنا من يتحمل المسؤولية عن تصرفاته؛ لأنه يعيش في غرفتي، ولما راجعته والحزن يطوقني عرف مدى الضرر الذي سببه لي فقرر أنه يريد أن يخرج من القسم، وعلى الفور أخرجوه من القسم إلى قسم آخر لبدأ رحلته من جديد، وبالرغم مما سببه لي من إحراج ولوم من الآخرين غير أنه لم يخالطني ولو ذرة ندم واحدة كوني شعرت بانسجام كامل مع إيماني العميق بكرامة الإنسان رغم ما دفعته من أثمان مقابل ذلك.

ولما خلوت بذاتي وغصت في أغوار نفسي أتلمس وأتقصى جذور موقفني الإيجابي حيال حريته؛ تبين لي أن لباب كرامتي هو الذي دفعني دفعًا للتعاطف والتضامن معه دونما اكتراث لما قد يلحق بي من أذى.

فلباب الكرامة الشعور بالكرامة الذي يسكن مستحكمًا في أعماق جميع بني الإنسان الأول؛ ينشئ حالة طبيعية من التضامن المتبادل، فلا أحد يقف بليدًا غير مبالٍ إذا ما شاهد إنسانًا آخر يتعرض للإهانة بسبب أو بدونه، وإن لم يكن يعرفه أو يعرف شيئًا عنه فإنه سيشعر أن غضبًا عارمًا يجيش في داخله على المعتدى وتنفجر إلى جنبها مشاعر تعاطف قوية مع الإنسان المعتدى عليه، ويود لو أن يبطش بالظالم المعتدي وينقذ المظلوم من مخالب عدوانه وأنياب غروره حتى لو لحق به الأذى، وهذه صورة



جميلة من أجل ما تفرزها العلاقات الإنسانية وهي التعاطف الإنساني أو التضامن الإنساني.

وقد اتفق وأنا لا أزال أعالج هذه التأملات أن التقيت في عام 2017م في سجن جلبوع مع أسير يشهد له الجميع بالنقاء الثوري وحسن السيرة وطيب السمعة، ووجدته ينطوي على صورة سلبية وموقف غير ودي حيال أسير آخر كنت أظنه على غير تلك الصورة، تبين لي أن هذا الموقف السلبي حياله لم يتكون جراء تصرف سيء منه تجاهه شخصياً، وإنما لأنه كما قال كان يتعامل مع الآخرين بتعالٍ وكبر، وكأن الآخرين لا شيء أمامه، فكان إذا طلب من أحد شيئاً يكون طلبه على صيغة الأمر الخالية من عبارات المجاملة والاحترام وتنطوي على إهانة الآخر، فكون عنه آنذاك الموقف السلبي تجاهه، وقال لي أمام دهشتي البادية مختتماً كلامه: «احترمني تكسبني وإذا لم تحترمني لا تلم إلا نفسك».

40

ولا شك أن كلامه هذا نابع من حسه القوي بالتضامن الإنساني الجميل، لكن على العموم إن الذي لا يتعاطف إنسانياً مع المظلوم لأي سبب كان كأن يكون المعتدى عليه من لون آخر أو دين آخر أو من مذهب أو قوم آخرين؛ فإن ثمة عطباً وخللاً لا محالة قد خالط إنسانيته، وأخشى أن يكون جزء من إنسانيته قد مات أو انكسر على الأقل، أو أنه مسجل في عداد المرضى إنسانياً فيكون بحاجة إلى العلاج بالعناية المركزة أو بالمصحة النفسية إلى أن يشفى وينجبر؛ لأننا نخاف على المجتمع منه أو بالأحرى من الجزء المريض من إنسانيته، وسيكون المجتمع أول ضحاياه بعد القريبين منه، وإن لم يسارعوا في معالجته وإخضاعه سريعاً لعملية إحياء وابتعاث



متجدد للتضامن الإنساني فيه النابع من لباب الكرامة الموجود لدى كل إنسان فينا.

والنظير إن لم يكن شعوره بالكرامة محطماً كلياً أو جزئياً يتفاعل ويتعاطف فردياً مع نظيره في حالات يسره أو عسره، فرحه أو حزنه، فلا عجب البتة إن رأيت أحد المتخاصمين يطرح خصومته جانباً أو حتى ينساها ويتعاطف مع خصمه إذا ما نزلت به شدة أو مصيبة، ولا يتباطأ عن مد يد العون له وقت الحاجة دونما تردد.

ألا ترى مثلاً إذا ما تم الاعتداء جسدياً على معلم في المدرسة من أحد تلاميذه كيف ينهض باقي المعلمين في المدرسة أو حتى في الوطن كله احتجاجاً على العنف ضد المعلمين، وتضامناً مع المعلم وكيف سيبررون احتجاجهم أن الاعتداء على المعلم هو بمثابة اعتداء على جميع المعلمين، فهم يتضامنون مع جنس شريحتهم إذا ما تعرض أحدهم للاعتداء، وهكذا الإنسان يدفع شعوره بالكرامة (لباب الكرامة) للتضامن مع جنس شريخته من المخلوقات، مع أخيه الإنسان إذا ما تعرض للإهانة أو الأذى، ربما شريحة المعلمين ومصالحهم هي التي تحركهم للتضامن المهني بينما الإنسان يحركه شعوره بالكرامة للتضامن مع نظيره في الخلق، مع أخيه الإنسان دون أن ينتظر تحقيق مصلحة سوى باستجابة للاندفاع الداخلي الأصيل، وأذكر كيف أننا كأسرى فلسطينيين سياسيين عمدنا في عام 2002م إلى بلورة قرار إضراب مفتوح عن الطعام ليوم واحد تضامناً مع أسرى حزب العمال الكردستاني التركي الذين أعلنوا إضراباً مفتوحاً عن الطعام لتحقيق مطلب عادل واحد وهو نقلهم إلى سجون قريبة من مكان سكنهم؛ لدفع



معاناة ومشقة السفر عن أهاليهم حين زياراتهم، وأذكر أن بعضهم قضى نحبه جراء ذلك الإضراب.

لاحظ، كيف أننا أعربنا عن مشاعر التضامن والغضب كأسرى سياسيين مع معاناه ومحنة أسرى سياسيين آخرين لا نعرفهم شخصياً، وإنما لكونهم أسرى مثلنا في «المعاناة والدوافع السياسية»، لذا أرى من حقّي أن أكرر أن الإنسان يتضامن ويتعاطف مع من هو مثله، أي مع الإنسان أيًا كان هذا الإنسان، ثم إنه قد يتعدى تضامن الإنسان مع أخيه الإنسان النابع من شعوره بالكرامة إلى غير جنسه من المخلوقات، فتراه يتفق ويتعامل برحمة مع باقي المخلوقات من حيوانات برية وبحرية وحتى الشجر أو بشكل عام مع البيئة وما حوت، ثم إن الوعي بالكرامة يجعله يتصرف مع الطبيعة وما شملت من منطلق المسؤولية والأمانة تجاه كل ما عداه، وهذا ما سنقابله لاحقاً.

42

إنه الشعور بالكرامة إذاً وإنه لشعور جميل جداً أن ينطوي عليه الإنسان وتحتاجه البشرية أيما احتياج، وهو من أغلى ما يملكه الإنسان مما لا يستغني عنه ولا يرضى عنه بديلاً، ولا يملك أصلاً عنه تحويلاً، ولا يضاهي غلاوته شيئاً؛ إذ به صار إنساناً متميزاً به، يغضب عندما يُعتدى عليه أو عندما يُعتدى على غيره من منطلق التضامن الإنساني الذي يولد هذا الشعور.

إذاً في سبيل مصلحة الإنسان والمجتمع والإنسانية والطبيعة ينبغي حماية وصيانة لباب الكرامة لدى الإنسان منذ طفولته وإلى أن يوارى الثرى،



والوسيلة الأهم لحماية لباب الكرامة هو الاحترام، والإنسان يريد فقط أن تحترمه، والإنسان يحب الذي يحترمه، عارضه، اختلف معه، انفصل عنه، فارقه، لكن إذا كان هذا على قاعدة الاحترام فإنك ستنال محبته وإذا شاعت المحبة شاع السلام وساد الوئام.

فكم هو مهم احترام الشعور بالكرامة، احترام كرامة الإنسان حق أصيل مقدس لكل إنسان ويجب احترامه، لكن ما يهمننا الآن هو التشديد على ممارسة الاحترام، احترام الجميع للجميع لأي كان ومهما كان، سواء أكان غنياً أو فقيراً، كبيراً أو صغيراً، قوياً أو ضعيفاً، ذكياً أو بسيطاً؛ لأن لكل أحد أيّا كان احترامه بنفسه واعتداده بذاته، وهذا هو لباب اللباب، بالاحترام تستخرج أفضل ما عند الإنسان، بل يعطيك الإنسان أفضل ما عنده عن طيب خاطر ونفس سخية.

وقد جربت عملياً فضيلة الاحترام في السجن مع الأسرى، ورأيت بأم عيني عجائب الاحترام وكيف أحالت الصعب سهلاً والمستحيل ممكناً، وكيف كشفت لي شيئاً من أسرار الإنسان وثمة أمثلة حصلت معي أردت أن تشاركوني فيها:

إنه أسير معروف بسوء العشرة وصعوبة العيش معه، وكان الأسرى يرفضون استقباله في غرفهم «يرون العمى ولا يرونه»، كان مثل الهم على القلب، والكل يدفعه عن نفسه وعن غرفته دفعاً، إلى أن وقع من نصيب الغرفة التي أقطنها، تعاملت معه باحترام كما الآخرين، لكن مع بعض الاهتمام والرحمة أو أستطيع أن أقول تعاملت معه باحترام لافت، وإذ بي



وبينما ونحن تحت سطوة الدهشة نتفاجأ من تصرفاته التي لا يمكن أن نعيها أبداً، بل كان دوماً يحاول أن يبقى سباقاً في فعل الخير والمبادرات، وطوال عام كامل لم يصدر منه إلا مشكلة واحدة مع أحد الأشخاص، وحتى في هذه المشكلة الوحيدة يحمل الشخص الآخر القسط الأكبر من الوزر، طبعاً بيني وبين نفسي عرفت أنه كان ينقصه الاحترام، ويحتاج من الجميع أن يتعاملوا معه باحترام ولا سيما من المسؤولين.

باحترامنا له أعطانا حقاً وفعلاً أفضل ما عنده: هدوء وتعاون وإخوة، أي أن الاحترام فجّر فيه كل معاني الخير والأمل التي كانت هاجعة في داخله وتترقب الذي يوقظها على نحو صحيح، واتضح لي فيما بعد من خلال تأملي حالته وعلاقته مع الأسرى أن الأسرى أنفسهم يتحملون جزءاً مهماً من طبيعة علاقاتهم بهم؛ إذ إن الأسرى كباقي الناس يتأثرون بالأخبار والإشاعات دون تبين وتحقيق من صحتها، وما أسرع انتشار الإشاعات! ليس الخطأ أن يسمعها الإنسان إنما الخطأ أن يصدقها دون تحقق ويتصرف تبعاً لها.

معظم الأسرى لم يعايشوه في غرفة واحدة، لكن أنباءه وصلت قبله، وإذا ما دخل غرفة يتصرف أسرى الغرفة معه تبعاً لما يحملون عنه من أفكار: الإعراض والتجافي والخشونة، فيجد نفسه محاصراً فيضطر أن يتعامل بالمثل فتترسخ عندهم الأخبار وتكتسب المصدقية، لكنهم لو جربوا أن يتعاملوا معه باحترام دونما جفاء أو إعراض لربما وجدوا إنساناً آخر كما وجدناه، ولعلموا بالتجربة أنه ضد ما سمعوه وسمعناه.



وثمة أسير آخر شبيه بالأول، وفي فترة مختلفة دخل الغرفة التي أقطنها، ولا أبالغ إذا قلت إنني لم أتعامل بأكثر مما أتعامل مع غيره من الاحترام، وإذ بي أسمع أحد الأسرى من خارج الغرفة يقول لي متعجباً: يا أخي ماذا تفعل معه حتى صار يقول إنك مثل أمه في تعاملك بل أحن من الأم؟ قلت له مستغرباً: إنني لم أتعامل معه إلا مثلما أتعامل مع الآخرين.

لكنني متيقن أن في داخله جوعاً للاحترام وهذه الجوعاً كما قلنا سابقاً إنها جزء لا يتجزأ من لباب الكرامة، وحينما لاقى الاحترام الذي هو أمر طبيعي والذي كان يفتقده من الآخرين حسبه حنان أم، وكأن الرجال طابعهم الخشونة وإن الحنان فقط من طبائع الأمهات!

45 وثمة أسير ثالث دخلت أنا هذه المرة إلى غرفته لأشاركه السكن فيها ليس باختيار، والغرفة كما هو معلوم تسع من ثمانية إلى عشرة أسرى، وقبل أن أنهى أول يوم فيها قال لي بعض الأسرى محذرين ومنبهين إن هذا الأسير لن تحصل على الراحة بالعيش معه، وأخذوا يعددون لي سلبياته وشططه، ومنها أنه دائم التأفف ويدقق على كل شيء، وقلما يعجبه شيء ومتطلباته كثيرة، باختصار صوروا الحياة معه جحيماً، لكن كعاداتي التي دأبت عليها، تعاملت معه باحترام مع مراعاة مني لما يتطلب عيشي معه من استحقاقات تجاه عمره ومدة مكوثه بالسجن إذ عمره فوق الخمسين وله قرابة الثلاثين عاماً في الأسر.

وهو كما يبدو كان يقبع في داخله الاقتناع أنه جراء مدته الطويلة في الأسر وكهولته يستحق احتراماً يناسب معاناته وعمره. من ناحيتي



أخطته بكل هذا الاحترام؛ لأنه حقًا هذه قناعاتي وإيماني في التعامل مع من ضحى كل هذا العمر لأجل أهداف عامة سامية ونبيلة، وأصلاً لم يكلفني شيئاً سوى أن أحترمه، فاحترمه كما كنت أحسب أن الجميع ينبغي أن يتصرفوا بهذه الطريقة، وما رأيت منه جعلني أستغرب تحذيراتهم وتنبهاتهم فأسررت في نفسي كم يخسر العالم من قلة الاحترام.

انظروا إلى هذه العجبية التي أكدت لي اقتناعاً لا يساوره شك أن الاحترام أداة لتفجير ينابيع الخير في داخل الإنسان، وهذا المثل هذه المرة أراي أن الإنسان كمنجم الذهب كلما تعمقت معه بالاحترام والاهتمام استخرجت منه، بل سيغدق عليك أنفس ما فيه من ذهب وأغلاه، وهذا الأسير الذي أنا بصدده قد ذهب بدهشتي إلى أقاصيها وهو من بلدة اشتهر أهلها بالعناد والعصيان على الانقياد والامتثال، فكنت أعامله باحترام مع بعض الاهتمام والحنان، ولا سيما أن هذه أول تجربة اعتقال له، وترك وراءه زوجته وابنه الوحيد الذي يسرف في جبهما أيما إسراف، فكنت أحياناً أجالسه وأحاول أن أخفف عنه بشكل منتظم وليس مرة واحدة؛ لأنني أعرف أن الأشخاص في مثل حالته بحاجة إلى تربية باليد على الكتف، كلمات تشجيع وغيرها من اللغات المحببة، وإذ به ذات يوم يفتحنني بالآتي: أتدري كيف علاقتي معك! قلت له كيف؟ أجاوبني بجدية بادية لو أن المسؤولين في التنظيم، المسؤولين عني وعنك جاؤوا وطلبوا مني فعل شيء لربما أرفض، سكت برهة ثم استطرد قائلاً: أما أنت وأنت لست بموقع المسؤولية فمهما تطلب مني فيني سأنصاع لك، سأنصاع لما تطلب مني فعله بدون تردد.



وهذا الإنسان ليس صغيراً أو بسيطاً، إنما في جوعة الاحترام التي تسكن دواخلنا فتميل إلى من يلقيها الاحترام ميلاً يصل بها إلى درجة المحبة، وفي حالتنا الأخيرة بلغت له المحبة حدّاً متطرفاً؛ إذ ما زاد دهشتي استخدامه عبارة أنصاع ولم يقل مثلاً: أستجيب لك أو أسمع كلامك وأخذ به أو حتى عبارة أطيع بل كلمة أنصاع لدرجة أنني ضقت بها ذرعاً! إذ كما أنني لا أقبل الانصياع لأحد فلا أقبلها منه لأي كان.

فعلمت حينئذ أن فضائل الاحترام والاهتمام والحنان من أهم أسباب النجاح في العلاقات بين الناس بإشاعة أجواء المحبة والسلام والوئام، وتشكل القاعدة الصلبة للتعاون والتضامن بينهم ناهيك أنها منحتني سرّاً آخر من أسرار الاحترام.

ذات مرة أحضرنا إلى غرفتنا أسيراً جديداً لشاركنا الحياة فيها، وهو في العشرينات من عمره، ويتصف بمستوى عالٍ من الطيبة والبساطة، وعلى عكس السابقين فكل الغرف تسعى لاستقبال أناس مثله، فكان باقي الأسرى في غرفتي يستلطفونه ويمازحونه كثيراً وأحياناً يبالغون في المزاح معه لدرجة الاستخفاف به، أما أنا في داخلي فأضيق ذرعاً من إسرافهم في المزاح دون مراعاة مشاعره (شعوره بالكرامة)، لكنني كنت أراه يجاريهم في الضحك والتلهي، فأقول في نفسي إن كان هذا المزاح يلقي هوىً في قلبه ويرضاه فليكن، فإننا عادة نسعى لأن نخفف عن أنفسنا وعن الأسرى بالدعابة، لكن ذات ليلة وإذ بي أتفاجأ من ردة فعله العنيفة على مزاحهم الأجوف حيث وصف رده بالقنبلة المنفجرة وسط الغرفة، وعلى الفور انخفرت في صدري حكمة الليلة: مهما كان الإنسان بسيطاً إلى



حد السذاجة فشعوره بالكرامة «حيّ يرزق»، يتطلع ويتوق إلى الاحترام والتقدير، فاندفع نحو شاكياً تجاوزاتهم الرعناء في مزاحهم معه، فكانت كلماته قذائف تندفع من قوة حنجرته بصوت راعد صاحب اعتبرتها صرخة مظلوم!! حينها تبين لي أنه لم يكن يضحك معهم وإنما يجبر نفسه على الضحك تحاملاً ومسايرةً إلى أن وصلوا معه إلى نقطة الطفح فصب عليهم جام غضبه.

هذه الأمثلة ما هي إلا قليل من كثير، وجميعها تشي بعلو قيمة الاحترام وبأثارها الإيجابية في منظومة العلاقات بين الأفراد، ومن ثم بتداعياتها المهمة لصالح المجموع، فكما أن قلة الاحترام والإهانة تفجر في الإنسان كل طاقات الشر القابعة في داخله من حقد وضيعة وثأر وانتقام، ومن ثم ما يليها من تداعيات هدامة لمعاني التضامن والتراحم والتعاون بين الناس ما يصدع ويخلخل تماسك الجماعة والمجتمع ويوهن وحدتهم وعزيمتهم عن مواجهة التحديات بقوة وحزم وثبات، أما الاحترام وممارسته بين الناس فهو على ضد ذلك؛ إذ أنه يفجر في الإنسان كل طاقات الخير لديه من محبة وتعاون وتسامح وعطاء ما يؤسس لقاعدة صلبة من التضامن والتكافل والتكامل ما يعزز فرص النجاح في الاتحاد والتماسك والتضافر على مواجهة تحديات الجماعة والمجتمع بقوة وحزم لا يلبنان.

لذلك تكتسب فضيلة الاحترام أهمية بالغة على الأفراد وعلى المجتمع برمته، وأقصد هنا احترام لباب الكرامة لدى الآخرين والحرص المتشدد على تجنب محاولة إهانة أو إذلال هذا اللباب، فالإنسان أي إنسان



حتى لو ضربته بكلتا يديك دون أن تقصد إهانته شعوره بالكرامة كردة فعل على شيء، أو بسوء فهم قد تجده مستعداً لأن يسامحك ويتجاوز ما حدث، لكنه لا يقبل البتة حتى لو ضربته بيد واحدة على أن يفكر بمسامحتك إذا ما شعر أنك قصدت إهانته وإذلال لباب كرامته، فسيقول كما يتردد وعلى ألسنة كثير من الناس: «لا أقبل أن يُعَلَّم عليّ». فإذا ما سمعت هذه العبارة من أحد فاعلم أن لباب كرامته المهان هو الذي يجأر، وهو الذي ينطق وهو الذي يتفرض فلا يقبل عن الاقتصاص بديلاً حتى يسترد للباب كرامته اعتباره واطمئنانه.

وهذا اللباب كما تبين يشترك فيه جميع البشر، ويتساوى فيه جميع الناس، ويجب احترامه إذا ما أردنا للإنسان أن يعيش حياة إنسانية، والإسلام ما جاء إلا ليبرز إنسانية الإنسان، واحترام لباب كرامة الإنسان هو الأساس القوي والمتين الذي تبني عليه باقي الحياة الإنسانية الجميلة والأنيقة اللائقة بروح الإنسان بالنفخة العلوية التي وهبها الله ﷻ للإنسان دون خلقه.

كرامة الإنسان وعيًّا:

قبل الحديث عن نظرية الإسلام حول كرامة الإنسان وعيًّا، سأعرض لنظرة الغرب حول كرامة الإنسان وحقوقه، ولا سمياً خلاصة ما توصلت إليه تأملات فلاسفة عصر التنوير.

في العصور الوسطى الأوروبية كان للكنيسة السلطة والسطوة على الفكر والقيم وعقول الناس؛ إذ كانت تفرض نفسها عبر سطوة الدين على



النفوس وعبر رجال الدين أنها الناطقة الوحيدة باسم السماء، والوحيدة المخولة بالتحليل والتحرير والتحسين والتقبيح، ولا شأن للإنسان الفرد بذلك سوى التلقي والخضوع والانقياد. فقد عطلت إرادته المتمثلة زورًا أمام إرادة الله بإرادة الكنيسة وكهنتها من رجال الدين وفي مقدمتهم البابا، وبإلغائها إرادة الإنسان_الفرد_ألغت عقله وحجزت عليه وحجبت فيه طاقاته الذهنية والإبداعية، وحجبت عنه بالتالي آفاق التطور والتقدم فكدست فوقه ظلمات سحب الجمود والتخلف إلى أن بدا وميض نور يشق طريقة عبرها.

بكلمات مرادفة إن الإنسان الغربي في العصور الوسطى الأوروبية لم يكن قط موجودًا أو حاضرًا في فكر أو اهتمام النخب السياسية والدينية المسيحية؛ إذ كان ملغيًا ومسحوقًا منسيًا.

استمر هذا التغييب للإنسان الفرد في أوروبا حتى قدوم عصر النهضة حيث بدأ في إطار الانبعاث والإحياء للقديم الالتفات إلى الإنسان ككائن ينطوي على متع ولذائذ ويستحق أن يتلذذ ويتمتع بها. ومن هنا كانت بدايات حرقه عن الفناء بالآخرة والعزوف عن الدنيا إلى التمتع بملذات الدنيا وبالجمال الذي توفره الحياة.

وما إن أطل عصر التنوير برأسه منذ القرن السادس عشر فصاعدًا حتى أخذت تتسلل إلى الفكر الغربي النظرة المادية للكون والإنسان والحياة تسلاً تراكمياً، وما لبثت أن سيطرت هذه النظرة سيطرة كاملة على الفكر الغربي برمته من ويلات مروراً بكونت إلى هيغل ونيتشه.



لقد مارسوا قطيعة مع الكنيسة وما تمثله، كردة فعل طبيعية على ظلمها وتعسفها، لكنهم أخطأوا حينما أعلنوا عملياً وفكرياً ترددهم على الله ﷻ بتناولهم الإنسان ككائن عقلائي مستقل عنه؛ إذ بات العقل كل شيء ولا شيء سواه، وصار العلم هو فقط ما يخضع للتجربة الحسية ومنطق العقل، حاذفين بذلك الغيب من دائرة علومهم؛ إذ إن ما يقع وراء الحس لا يمكن أن يخضع للتجربة، ولا يمكن إذا وصفه بالعلم تبعاً لوجهة نظرهم.

لكن هؤلاء الفلاسفة وجدوا أنفسهم في مأزق فكري - فلسفي - أخلاقي عميق، لقد وجدوا أنفسهم أمام أسئلة تحتاج إلى إجابات حينما ركزوا اهتمامهم ونشاطهم الفكري والفلسفي على الإنسان وحقوقه وبأحقيته بها، وبوجوب احترامها، والأسئلة كانت من قبيل: كيف يسوغون أحقية الإنسان بهذه الحقوق؟ وكيف يفسرون من أين استمدها الإنسان؟

سور خصامهم وعدائهم المبرر للكنيسة وموروثها وما تمثله تعاضم سمكاً وتطاول ارتفاعاً، مع تراكم الظلم والقهر على مر القرون وكر العصور، فسترهم عن الحقيقة الكبرى، وحجبهم عن إيصال الفرع بالأصل والنسي بالمطلق، فلم يحاولوا حتى الارتفاع عنه أو تجاوزه ببصيرتهم وتبصرهم إلى ذاك المطلق، إلى المصدر الأول، إلى الله ﷻ خالق الإنسان ومالكة ومميزه بـ «عقل عقول ولسان سؤل» وبإرادة حرة وعزيمة فذة، ومبدعة على أحسن صورة وهيئة لا يتفتق عن أحسن منها خيال متخيل لوبلغ من قوة التخيل مكاناً علياً، وإنما انحرفت وجنحت بهم عقولهم إلى المادية وإلى التمرد والقطيعة.



فلما ضاقت بهم السبل أسعفتهم عبقرياتهم بابتداع ما سموه الحق الطبيعي أو القانون الطبيعي؛ إذ رأوا أن الإنسان ذات طبيعة متميزة يشترك فيها جميع الناس وهي فوق الزمان والمكان، ولما كان الإنسان كذلك فإن حقوقه قد انبثقت من طبيعته المتميزة تلك، ولو تأملنا إقرار الفيلسوف الإنجليزي جون لوك لهذه الحقوق لوجدنا قصور وعيه؛ إذ أقرها على خجل وعلى نحو مشوه وغير ناضج، واستثنى منها اليهود والنساء والملاحدة.

على كل حال منذ هذه اللحظة؛ لحظة إعلان تمردهم على الله ﷻ فقد أسلموا البشرية إلى العقل وإلى المادية بعيداً عن المطلق بعيداً عن الروح، لكن في سبيل إسعاد البشرية كان عليهم أن ينحازوا إلى الموازنة ما بين المادة والروح، وما بين العقل والوحي؛ لأنه ياهمال أحد طرفي الموازنة يقود البشرية إلى الشقاء والعنت، ولكنهم للأسف انحازوا إلى الصدام مع الطبيعة الروحية للإنسان لحساب المادة فقط.

52

إذاً أقر فلاسفة الغرب، ومن ثم دساتير دولهم من بعد حق الإنسان بالكرامة ووجوب احترامها، وأن الإنسان اكتسب هذا الحق من طبيعة الإنسان المتميزة في إطار قانون طبيعي.

وهم عندما ينادون بوجوب احترام كرامة الإنسان إنما يقصدون احترام لباب الكرامة (الشعور بالكرامة) التي شرحتها مسبقاً، وإذا كان ثمة وعي حول الكرامة يقود وعي الإنسان أنه مخلوق بطبيعة متميزة تفضله عن سائر المخلوقات، ومن حقه بفعل هذا التميز والتفضيل احترام كرامته بعدم إهانته أو إخضاعه للتعذيب أو التحقير، أي منع كل ما يدخل



في إطار النيل من لباب كرامته، وهذا بحد ذاته موطن يستحقون الاحترام فيه، لكن كرامة الإنسان في مفهومنا الإسلامي _ حسب اجتهادي _ أكبر وأعم وأعمق بعمق التاريخ الممتد عبر تاريخ أبينا آدم ﷺ من لدن خلقه ونفخ الروح فيه، وهذا ما سنباشر عرضه _ إن شاء الله _ بعدما قدمنا له كل ما سبق.





أصل الكرامة

أولاً: لباب الكرامة (الشعور بالكرامة)

وهو متأصل ومتجذر في الإنسان لا ينفك عنه البتة ولا يجب أن يفارقه برهة ولا يحق لأحد مصادرتة أبداً، فمن سلبه أو سحقه ارتكب ظلماً، ومن حماه واحترمه سلم، ويشترك فيه جميع البشر على نحو متساوٍ.

وقلنا إن هذا اللباب في الإنسان يعمل تلقائياً وبسرعة عجيبة تماثل ردة فعله لأي مس جارح به، ردة فعل من لسعت يده بمس كهربائي ينتفض بدون تخطيط أو تفكير، يبعد يده بحركة أسرع من البرق عن نقطة التماس، ثم بعدها يفكر وهو يتنفس الصعداء احتفاءً بنجاته وبالذي حدث معه فيعي عندها الذي حدث له.

وكذلك تماماً، بل أسرع تكون ردة فعل الإنسان إذا ما شعر بأذى وأرهف شعور أن أحداً مس لباب كرامته بأذى مس، قاصداً إهانتة والنيل منه فلا يحس إلا بانتفاض مشاعره في جميع أنحاء وجوانبه وأعماقه، فتدفعه للثأر ورد الاعتبار ويبقى في انتفاضته إلى أن تعود مشاعره وعواطفه إلى توازنها وهدوئها، ولن تعود إلا عندما يشعر لباب كرامته بالرضى والارتياح، ولن يكون ذلك إلا بعد استرداد حقها واعتبارها.



ثانيًا: الوعي

وهو التفرع الثاني لأصل الكرامة، وإن كان بأصله موجودًا بالقوة مع كل إنسان إلا أنه لا يتحصل له بالاكتساب والتنظيم، وينقسم إلى قسمين: الأول (الوعي بالكرامة) ووعي الإنسان بكرامته، والثاني (الوعي للكرامة) ووعي الإنسان لكرامته، والثاني يبنى على الأول ويستكمله، ولا يتحصل الثاني للإنسان بصورته الناضجة الصحيحة الكاملة إلا بعد وعيه بكرامته أولاً.

ولا يتحصل الأول إلا بالتعرف على كتاب الله ﷻ، تعرفًا تأمليًا يحفه الخشوع والاستغراق، والشيء نفسه مع سنة الرسول ﷺ وسيرته الشريفة، وبالطبع بالتعاون مع الصفوة المؤمنة الواعية الداعية التي قد سبقته بوعيتها لكرامتها.

56

وأولئك هم السابقون المقربون - حسب رأيي - الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ (١٠) ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ۚ﴾ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٤].

وهذه الصفوة المؤمنة الواعية الداعية هي الثلاثة التي نذرت نفسها للقيام بواجب الخلافة على منهج الله ﷻ وصراطه المستقيم على المستوى الشخصي والعام، ويعملون ويهيئون للآخرين الارتقاء بمستواهم إلى الوعي بكرامتهم حتى يضموا جهدهم إلى جهودهم، ويرصوا بهم صفوفهم للقيام سوية لما عهد إليهم من إعمار الأرض وإصلاحها وتمكين الناس من القيام بواجب الخلافة.



ولربما يصل الإنسان دون معية الفئة المؤمنة الواعية إلى وعيه بكرامته من خلال تأملاته المعمقة بآيات الله ﷻ، وعجائبه المثبتة بالكون، ومن خلال آيات القرآن الكريم والسيرة العطرة للرسول محمد ﷺ ولسنته الشريفة الصحيحة، لكن قلما نجد أحداً يستطيع أن يتحصل على وعيه بكرامته مستقلاً بالكامل ولو اكتفى بالاستعانة أو الاسترشاد ببعض كتاباتهم وإشراقاتهم الروحية ويدهم الممدودة دوماً ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62]. ومع ذلك فإن السبيل ميسر لكل من أراد، واستعان برب العباد فالمولى ﷻ يقول ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: 17].

أ- الوعي بالكرامة:

أشرت سابقاً أن الوعي بالكرامة عبارة عن عملية تنضج باستمرار حتى يصل الإنسان السالك إلى وعيه بكرامته، وحالما يكتسب السالك هذه الصفة من المفترض به أن يكون قد اكتسب مجموعة من التفصيلات وهي: بما أنني كإنسان سليل أبينا آدم ﷺ، وبما أن الله ﷻ كَرَّمَهُ بالنفخة العلوية، فإنني كوريثه كريم أنا الآخر عند الله ﷻ، وكريم عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70].

وكوني وريث أبي آدم ﷺ فإنني مستأمن على خلافة الأرض من بعده، ولكن تبعاً لمنهج العلي ﷺ حتى أكون بحق وريثه الشرعي لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، ولقوله ﷻ: «إن الدنيا حلوة



خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون» بما استأمنتم عليه من خلافة الأرض على منهج النبوة.

وكوني مستخلفاً على الأرض من الله؛ فإنني مستأمن على عمارتها وإصلاحها لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، ولقوله تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: 88].

ثم أكون واعياً بأن الله ﷻ زودني بما أستطيع من خلاله النهوض من أجل الاستخلاف في الأرض ومسؤوليات الإعمار من باقي المخلوقات وميزني وفضلني عليها لدرجة لم يعجب بها إبليس -لعنه الله- ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْنَنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62].

وواعياً بأن الله ﷻ كرمني لأجل ذلك بآلة العلم والتعلم والفهم والإدراك «العقل» وبدوافع الطموح والفضول وطلب السعادة ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5].

وكذلك ولأجل ذاك أكون واعياً أنني الكائن الوحيد الذي جعله الله حي الإرادة والاختيار، ذا عزيمة وذا قوام على نفسي، ومسؤولاً وحدي عن أعمالي واختياراتي ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٢١) ﴿وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى﴾ (٢٠) ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ [النجم: 39 - 41].

أكون واعياً كريماً كما أرادني الله ﷻ وكما خلقتني إلا إذا كنت حراً مختاراً، فالحرية رديفة الكرامة ولا يمكن لمن اختاره الله ﷻ خليفته في أن



يكون مسلوب الحرية مقهور الإرادة من إنسان مثله أو من جهة ما إلا بسلطان من الله له به عليه برهان.

وأكون واعياً أن الله ﷻ كرمني وميزني عن سائر المخلوقات بأن جعلني على أجهل صورة وتصميم وخلقني ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]، وعندها قال العلي الكريم للملائكة الكرام ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [البقرة: 34].

هذه هي التفصيلات التي سيمر بها طالب الوعي بكرامته عبر رحلة المجاهدة والتأمل والاستغراق، فما أن يصل محطته الأخيرة فيها حتى يكون قد تقصاها إماماً وإحصاءً، لكن دورة التنضج لمفهوم الكرامة لن تتم له إلا بعد أن تكون هذه التفصيلات قد استغرقتة تأملاً طويلاً وأشبع فيها وعيه ووجدانه، حينها لا يعجب إن إذا ما ذرفت من عينه دمعة وانبعثت من صدره زفرة حياء ورهبة حنيناً ومحبة إلى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝۲﴾^٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿[الأعلى: 2 - 3].

وحالما تكتمل عملية التنضج بالاستغراق والإشباع يشابك هذا الوعي الناضج بلباب الكرامة (الشعور الكرامة) فيعي حينها أن لباب كرامته كان قد استمد شعوره من معين هذه التفصيلات عبر قنوات سرية خفية على نحو لم يكن يشعر به ولا فكر فيه، أو أن هذه التفصيلات كانت كالمولد ثاوياً في زاوية خفية محجوبة أنواره وخيراته إلا لمن سعى سعيها وهو مؤمن فعندها يخرجه الله ﷻ من الظلمات إلى النور نور الوعي بالكرامة.



وقبلها كان هذا المولد يمد لباب الكرامة ببعض أنواره بمسارات خفية بانتظار أن يصحو هذا الإنسان من سباته، ويسلك سبيل التأمل والاستغراق في تفاصيل الوعي بالكرامة، فإن فقدوها ولم يتأخر ونهى نفسه عن الهوى فسيكتمل نضجه بوعيه للكرامة، حينها ستكون ثمة تغذية متبادلة وعلاقة متشابكة ما بين الشعور بالكرامة والوعي بالكرامة، لكن كليهما يقيان مستقلين أحدهما عن الآخر مع إمكانية اتحادهما باندماج أو حتى ذوبان لباب الكرامة مع الوعي بالكرامة، فلا يعد لباب الكرامة مستقلاً بتلقائيته وانتفاضته وثورته إذا ما نيل بإهانة أو عسف.

ولكن لا يتم له ذلك إلا إذا ارتقى بوعيه بكرامته إلى مستوى وعيه لكرامته حينها سيسيطر الوعي للكرامة على لباب الكرامة المتوقد دوماً بعقلته وتهذيبه حتى يبقى منقاداً له بلا تمرد أو عصيان.

ولتسهيل فهم المهمة للسالك يمكن عرض عملية التضجج عبر تلمس الجواب للسؤال الآتي: بماذا أكرمني الله ﷻ وميزني وفضلني عن باقي مخلوقاته حتى جعلني خليفته في الأرض؟ وهي بحد ذاتها تكريم من الله ﷻ.

من لحظة تفجر هذا السؤال في داخل الإنسان واستمرار ترده في صدره هو عملياً يكون وضع أول خطوة له في رحلة البحث عن الذات (البحث عن الجذور).

لكن عليه أن يتقصى جذوره وأصوله وأصول ذاته حتى النهاية لا أن يقف في منتصف الطريق كما يفعل أصحاب الفلسفة والنظرة المادية للكون والحياة والإنسان.



اذ لو تتبع الإنسان الغربي بأمانة واستقامة أغوار النفس البشرية لما قبل التوقف عند الحاجات والدوافع التي لدى الإنسان وعبر عنها ماسلوا⁽¹⁾ في هرمه، وكان وصل إلى الحقيقة الكبرى وإلى فهم أمثل لكل جوانب حياة الإنسان وعوالمه.



سلم ماسلوا لحاجات الإنسان

إن أعمق ما توصل إليه الإنسان الغربي عند غوصه في أغوار النفس هو مستوى لباب الكرامة وحاجاته ودوافعه النفسية والاجتماعية والمادية المذكورة أعلاه؛ إذ قالوا إن في أعماق الإنسان تكمن حاجاته ودوافعه النفسية التي تؤثر في سلوكه ونشاطه وأنه منطوي على حقه في الكرامة، وهم هنا يوافقون على ما سميناه لباب الكرامة وسائر حقوقه في الحرية والحياة والتملك، وإلى هنا نتفق معهم أن الإنسان حقاً ينطوي على هذه الحاجات والدوافع والحقوق، لكنني أختلف معهم في الترتيب ومصدر هذه الحقوق.

(1) راضي الوقفي، مقدمة في علم النفس، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2004، ص 347.



أظن أن ثمة سبيين وقفاً عائقاً أمام استمرار التوغل والاستقصاء وراء مصدر الحقوق التي يجب أن يتمتع بها الإنسان، أولهما: عداؤهم وخصامهم العنيد للكنيسة وما تمثله؛ إذ رأوا فيها سبب تخلف الغرب الأوروبي في العصور الوسيطة، وثانيهما: اقتناعهم الطاعني بالعقل وبقدرته على حل كل مشاكلهم وتوفير الأجوبة على أسئلتهم كافة، فضلاً عن كونه الرفاعة المؤكدة لتحقيق تطور الغرب وتقدمة علمياً وصناعياً وحضارياً، ومن ثم تفوقهم على العالمين، والأهم أن السبب الثاني كان أيضاً دافعاً قوياً في تغذية وتعظيم وتضخيم السبب الأول (عداؤهم للكنيسة)؛ إذ إن منجزات العقل من اكتشافات واختراعات ومقولات نظرية ابتداء من منتصف القرن الخامس عشر وحتى القرن الثامن عشر ما زادتهم إلا غروراً وافتتأناً بالعقل القادر على كل شيء.

وبالتالي إسرافاً وتطرفاً في قطيعتهم وتمردهم على الكنيسة وما تمثله في أعماق النفس عند طبقة الحقوق والحاجات والدوافع، لكنهم في قرارة أنفسهم يعرفون أنه لا مناص من مصدر كوني تسند إليه هذه الحقوق؛ إذ إن الحاجة إلى قولهم إن الإنسان ينفرد بطبيعة متميزة وهي فوق الزمان والمكان، بمعنى أنه يشترك بها كل البشر؛ ساقهم إلى نسبتها إلى مصدر كوني يكون هو أيضاً فوق الزمان والمكان، وهنا انبرى العقل مرة أخرى ليسعفهم من ورطتهم التي راوحوا فيها، فأبدع لهم فكرة القانون الطبيعي والحق الطبيعي فقالوا بما أن الإنسان ينفرد بطبيعة متميزة عن باقي المخلوقات، فحقوقه تنشق من طبيعته المتميزة وذلك في إطار القانون الطبيعي الذي هو فوق المكان والزمان، وهكذا أعفوا أنفسهم من استمرار



الاستقصاء نحو الأعماق وأراحوا ضميرهم العلمي بهذا الإدعاء، ومن ثم باكتشافهم هذا باتوا يصفونها بالحقوق الطبيعية للإنسان في إشارة منهم إلى القانون الطبيعي الذي يضبط الإيقاع الداخل للكون وعوالمه.

لكنهم لو ظلوا مصطحبين معهم في بحثهم العلمي كامل الصدق والأمانة لما وقفوا هنا، ولما احتاجوا الفكرة القانون الطبيعي، ولربما وصلوا لما نقوله مما ينبثق من نظرتنا كمسلمين عن الكون والحياة والإنسان أن الله ﷻ خالق الإنسان ومالكه وخالق الكون ومبدعه؛ أرادت مشيئته أن جعل آدم ﷺ خليفة في الأرض وكرمه لأجل ذلك بالنفخة العلوية من روحه ﷻ وميزه بالعقل المفكر والإرادة الحرة وكلفه بإعمار الأرض هو ثم بنيه ورثته من بعده.

فكان الإنسان منذ لحظته الأولى على الأرض كريماً حراً مسؤولاً عن نتائج أعماله، فالإنسان يولد وتولد معه كرامته وقلنا إن لأصل الكرامة تفرعين، الأول: لباب الكرامة، والثاني: وعي الكرامة، ولقد عرفنا سابقاً مفهوم لباب الكرامة التي أقرها وحدها الغرب للإنسان.

والآن أقول إن من لباب الكرامة (الشعور بالكرامة) التي لدى كل إنسان تنبعث الكثير من حاجات الإنسان ودوافعه، من تطلب وتطلع للمحبة والتقدير والاحترام والاكتشاف والمعرفة وحب الرئاسة والوجاهة والشهرة والقوة والسيطرة وتحقيق الذات والسعادة وغيرها، وجميع هذه التطلعات والحاجات والدوافع ما هي إلا فرع عن لباب الكرامة الذي يولد مع الإنسان، ولباب الكرامة فرع هو الآخر عن الأصل والمطلق وواجب الوجود بل وعن المصدر الأول الله ﷻ.



مادياً استقصوا وتتبعوا البحث حتى نهاياته فلم يكتفوا -مثلاً- باستخراج المياه الجوفية من أعماق الأرض والتوقف عند مستوياتها، وإنما تبادوا بالتعمق والتنقيب والتقصي حتى استخرجوا الذهب الأسود (النفط) مصدر الطاقة الأول بعد اكتشافه.

أما روحياً في أعماق النفس البشرية فجمدوا عند مستويات لباب كرامة الإنسان وسائر حقوقه ومستوى حاجاته ودوافعه وتمنعوا عن تتبع وتقصي نهايات تعمقهم للوصول إلى البدايات وإلى مصادرها جميعاً.

وبما أننا في دائرة الحديث عن الحقوق والحاجات لدى الإنسان أرى من المفيد أن نبرز الفرق ما بين الحاجات وما بين الحقوق.

فمن حيث الحاجات فإن الإنسان تخالطه حاجات نفسية واجتماعية ومادية تحتاج إلى إشباع غير متوافر عليه ابتداءً، وعليه أن يكد ويكدح ويكابد لكي يكتسبه ولا شيء يكتسبه بغير عناء وكد حتى الرضيع ابن يومه عليه أن يهتدي إلى صدر أمه والتكيف مع عملية الرضاعة.

وكلما زاد في عمره زادت حاجاته وازدادت معه معاناته وعناؤه ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلْيُفْقِهْ﴾ [الانشقاق: 6]، وقوله ﷺ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 4]، فالكبد والكدح ينتظر الإنسان في سبيل الحصول واكتساب الحاجات.

أما الحقوق فهي موجودة له ابتداءً وهي جزء منه وتولد معه، وأصلاً هو يرفض ألا يكون إلا بها ولا يتخلى عنها طوعاً أو تنازلاً إلا غصباً وسلباً،



فالإنسان يرفض أن يكون إلا حراً وإذا ما سُلبت منه حريته فإنه يفقد كثيراً من إنسانيته كالزج به في السجن، أما إذا ما سلب جزء منه من حريته كمنعه من الإدلاء برأيه مثلاً، فهو يفقد جزءاً من إنسانيته فلا يكون الإنسان إنساناً كاملاً بلا حريته الكاملة (وهنا أقصد أصل الحرية التي يولد بها الإنسان، فالحرية الحق: هي التي تتساوى مع قيم المجتمع وحریات الآخرين، ووفقاً لتأملاتنا فالحرية هي المساوية مع مفهوم وعي الكرامة).

وإذا ما كان ثمة كد وكدح في مجال الحقوق فهو لأجل حمايتها وتحسينها وتحقيق غايات ومقاصد الإنسان في هذه الأرض التي لا تتجزأ إلا بها.

65 فالوعي بكرامتي هو الإدراك أن الله ﷻ قد جعلني كإنسان خليفته في هذه الأرض، وخولني كل ما أحтаجه في سبيل الوفاء بعد الاستخلاف بما أودع بي من صفات وملكات قادرة على تطويع ما في الساء والأرض بفضل تسخيرها المسبق من الله تعالى لي ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: 20]، وأدرك أشد الإدراك أن كل إنسان هو خليفته ونائب عنه -تعالى- مثلي ويشاركني بعهد الاستخلاف والإعمار. والوعي بالكرامة أيضاً: هو إدراك أنني إذا كنت كإنسان اختاره الله ﷻ واستخلفه في هذه الأرض من دون المخلوقات فأنا كريم عند الله وأكرم مخلوقاته عليه وقريب منه.

هذه هي كرامة الروح، كرامة النفخة من روح الله التي تنتشر في كل أنحائي وأجزائي وذرات كياني وهي باقية معي ما بقيت، وتبقى معي



حقوقى ما بقيت ولا سلطان لأحد على سلب حقوقى منى إلا بسلطان من الله مصدر هذه الحقوق ومصدر هذه الروح.

هذا هو إدراكي كرامتي، ويبقى أن أثابر على أن يستغرق هذا الإدراك كامل وعيى، كامل الاستغراق ليلبغ بذلك كمال نضجه وكمال دائرته عقلاً وعاطفة، إدراكاً ووجداناً، حينها يلبغ الإنسان بحق درجة وعيه بكرامته ومن بلغ هذه الدرجة يكن قد سلم خطواته الأولى في صراط الله المستقيم ودينه القويم، عندها لا تجده يزيغ لسانه إلى مقولات بعض المتصوفة كقولهم: «نحن أشباح، خيالات، نحن لا شيء»، ولا كما يقول بعض فلاسفة الغرب ومفكرهم كقول شكسبير: «الدنيا مسرح وكلنا ممثلون»، أو كقول ديكارت: (أنا أفكر إذاً أنا موجود)، أنت لست مجرد موجود كذات مفكرة فقط، بل أنت خليفة الله في أرضه، وما عقلك إلا إحدى الوسائل الممنوحة لك للنهوض بأمانة الاستخلاف وأنت لست شبحاً أو خيالاً؛ إنما أنت إنسان مستخلف ومكرم عند الله ﷻ.

لكن المهم ماذا أصنع بهذه الكرامة وما ينبغى على القيام به لصونها واحترامها، ولأثبت أنني الأجدر بها؟ والإجابة على هذه الأسئلة هو ما سميناه الوعي للكرامة.

ب: الوعي للكرامة (وعي الإنسان لكرامته)

ثمة ثمار عذبة يجنيها المرء بعد اكتمال نضج وعيه بكرامته، أرى أن أذكرها قبل بدء الحديث عن الوعي للكرامة؛ إذ إنه متى بلغ الإنسان وعيه



بكرامته فإن الأمر سيغدق عليه سلة من الثمار أنضجها خمس ثمار هي:

يمنحه شعورًا جميلًا جدًّا؛ إذ إن كل تفصيل من تفصيلات عملية الوعي بالكرامة يستولد فيه عاطفة محبه تجاه الأرض والسماء والبحار وكل ما فيهما من حياة.

1 - يستشعر عاطفة القرب من أبينا آدم عليه السلام وعمق انتمائه له، وبالتالي تغمره مشاعر القرب من الله ﷻ بفعل اتصال الفرع بالأصل وتطلعه إليه.

2 - يضيخ فيه مشاعر الاعتداد بالنفس، والثقة بالذات والكثير من الهدوء والطمأنينة والتفاؤل والأمل.

3 - يشعر بتنامي مشاعر الرقة والرحمة والرأفة تجاه الضعيف والمحتاج وإلى كل من لا حول له ولا قوة إلا بالله، عابرًا بمشاعره تلك حدود الإنسان إلى الحيوان والطير والهوام وحتى الجبال والنبات.

4 - يغمره الشعور بالمساواة مع أخيه الإنسان وتقاسمهما الحمل والمسؤولية.

الملاحظ لحديثنا يجده يدور حول المشاعر، وهذا ليس مستغربًا؛ إذ إن المشاعر الباقية هي دومًا نبع للوعي الناضج، فمشاعر النزوة تكون عابرة، ولهذه المشاعر حلاوة لا يذوقها إلا الوعي بكرامته، وضمان بقاء تدفق حلاوته يقع ضرورة على وعيه لكرامته الذي سنتناوله في صفحاتنا التالية.

في البداية أُجمل، ثم أفصّل ماذا يعمق ليصل للإنسان وعيه لكرامته،



وأريد أن أذكر أن درجة الوعي للكرامة هي درجة أعلى من درجة الوعي بالكرامة، ويكمله بها ولا تتحصل إلا بأعقابها.

وعيني لكرامتي يعني أن أعمل مجداً لأبقى كريماً على الله ومكرماً عنده، وأكون حريصاً وخائفاً كيلا أخسرها ولكي أبقى بحق خليفته الصالح والناجح، وأبقى وريث آدم عليه السلام الشرعي، وأكد وأكدح وأجاهد لأكون حراً بهذه الثقة الكريمة من رب كريم لكيلا تصرف عني، وأنتكس إن أنا نقضت عهدي الاستخلاف والإعمار اللذين هما عقدي مع الله ﷻ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1].

ولكي أبقى كريماً على الله ﷻ جديراً بثقته -تعالى- ومكرماً عنده ومقرراً بأمنه، هذا لا يعني أن أبقى واعياً لكرامتي، صائناً لها عاملاً بها بلا كلل أو ملل، ما يوجب عليّ أن أنهض بدأب وشغف بكل مقتضيات استخلافي في الأرض ومتطلباتها بأمانة لا يشوبها خبث، وصدق لا يخالطه دخن صوب تحقيق إعمار الأرض وحمايتها وتهيتها بدوام إصلاحها وتطوير أحوالها ليتسنى لمن شاء من خلق الله -تعالى- اختيارهم: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29] عبوراً إلى الدار الآخرة دار الحساب حينها كما يقول ﷻ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47]، وإن أساس متطلبات استخلافي في الأرض هو الإصلاح دوماً وفعل الخير مطلقاً ونشر السعادة وطررد الشقاء وتخفيف المعاناة.



وكذلك علي أن أحرص أشد الحرص على حماية ورعاية (لباب الكرامة) الموجودة لدى كل إنسان، ولو أنفقت في سبيل الله ذلك حياتي؛ لأنني في الجوهر أدافع عن حكم الله ﷻ في وجوب احترام كرامة الإنسان أيًا كان هذا الإنسان؛ إذ في الاعتداء على كرامة الإنسان (لباب كرامته) عدوان على الله ﷻ، وظلم مقترف ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 57]، وفي مفهوم المخالفة من يحترم كرامة الإنسان عدل وفي العدل طاعة وعبادة لله ﷻ؛ لأن إقامة العدل بين الناس ومع الناس استجابة لأمره تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90]، وذلك كله لأن كرامة الآخرين كرامتي واحترامها احترام لكرامتي.

69 وبدافع من واجب كرامتي يتوجب علي أن أسعى إلى الأخذ بيد كل من أرى فيه الاستعداد والإرادة للنهوض بكرامته من لبابها وصولاً للوعي بالكرامة، ثم الوعي للكرامة، بل أسعى كاذبًا بين الناس بالترغيب والإقناع على ضرورة الترقى بالوعي لأجل حاضرهم ومستقبلهم الدنيوي والأخروي، أسعى لأن يعوا كرامتهم من الله ﷻ وأنها لا تقف عند حد اللباب فقط، وما لباب الكرامة إلا الكرامة بسذاجتها وبساطتها وبدائيتها، وما الاستغراق في التأمل والتفكير إلا سبيل لتوعية لباب الكرامة، وما أن يصل الإنسان إلى وعيه بكرامته تمام الوعي حتى ينتقل من فوره إلى وعيه لكرامته، وثمة سورة قرآنية تشكل له خارطة طريق لتجسيد وعيه لكرامته.

إنني أرى أن أم الكتاب (الفاتحة) التي نكرها في كل ركعة وفي كل صلاة هي التي تحمل في ثناياها جميع معاني وعيي لكرامتي، وعي الإنسان



لكرامته، فمتى طبق الإنسان معاني سورة الفاتحة وتحققت فيه فهو عندئذ بحق وحقيق داع لكرامته ناهض ومتحقق بها.

بكلمات مرادفة متى أصبح الإنسان هو نفسه سورة الفاتحة فإنه يبلغ درجة الوعي للكرامة، ويضحى من الصفوة المؤمنة الواعية الداعية التي نذرت نفسها للخير والمعروف ابتغاء لمرضاة الله ﷻ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: 207]، فكانوا بحق خير فئة أخرجت للناس ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].



سورة الفاتحة والوعي للكرامة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣﴾
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ [الفاتحة: 1 - 7]

تذكرنا آيات سورة الفاتحة في كل يوم وليلة مرات وكرات بالأمانات
والعقود التي تعهدنا الالتزام بها أمانة الاستخلاف وأمانة الإعمار وأمانة
العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ
تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58].

فآيات سورة الفاتحة هي بوصلة الصفوة وميزانها بها تحقق وعيها
لكرامتها، وعلى هديها تسير لا تضل بها ولا تحيد، ثابتة على صراطها
المستقيم.

«الحمد لله» دعوة للعمل والإبداع والإنتاج والشكر:

الحمد لله أنك علمتني وكرمتني وجعلتني عندك مكرماً، الحمد لله
أنك منحتني الثقة بأن جعلتني لك في الأرض خليفة، الواعي لكرامته
يستشعر دوماً عظيم فضل الله ونعمته عليه، فهو مفعم بالشكر لله والحمد
له ويغمره الحياء منه - تعالى - لشعوره بالتقصير مهما صنع؛ لأن نعم مولاه
لا تنفك، بل تتوالى عليه، ﴿وَإِنْ نَعُدُّوْا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34].



والحمد لله) هي دعوة للعمل والإبداع والإنتاج؛ إذ الوعي لكرامته يستلهم كذلك من ظاهرة تكرارها في الصلاة فرضاً وفي غيرها تطوعاً ونفلاً، أن يبقى متلبساً بالشكر والحمد، ليس فقط على ما وهبه الله والحمد له وإنما على ما صنع هو وأنتج وأبدع، فإنه إذا كان الحمد على شيء يرضيك وتجه وينفعك فإنها تستبطن دعوة إلى العمل وإتقانه وإلى الإنجاز وإلى الإبداع والإنتاج؛ لأن فيها كلها تحرز ما تجه ويرضيك وينفعك وربما ينفع الآخرين، فظل محمد الله على ما أنجزت أنت وأبدعت لخيرك وخير الناس، وذلك بواسطة ما وهبك ووضع فيك من ملكات ومواهب وطاقات، أي أنك تبقى تتقلب بالحمد على ما أعطاك وبالحمد على ما عملت أنت وأنجزت بما أعطاك ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

ومن معاني الحمد لله أنها دعوة إلى شكر من أسدى لك معروفًا أو قدم لك خيرًا، فالرسول ﷺ يقول: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» [رواه البخاري]، ويقول أيضًا: «من أسدى لك معروفًا فكافئه، فإن لم تجد فقل جزاك الله خيرًا» [الطبراني]. فهذا سلوكك مزدان بالجمال فتلبس بالعدل؛ إذ إن الإنسان الذي يسدي لك معروفًا أو يتطوع لك بخير، فإنه في أعماق سريره ينتظر شكرك له، وإن بدا أنه لم يطلبها فإنه يشعر أن من الإنصاف والعدالة أن تشكره وإنني أرى فيها حاجة صادرة عن لباب كرامة الإنسان. إن من صميم لباب كرامة الإنسان الاعتداد بالنفس الذي ينبعث منه كما قلنا سابقًا الحاجة إلى التقدير، فإنك عندما تشكره على ما فعل



لأجلك، فكأنك تعترف بحاجتك له أو على الأقل كأنك تعترف بقيمته المضافة لك وللآخرين، وهذا بحد ذاته يشعره بالانتصاف، فالتطوع ويقابله الشكر يعكسان صورة جميلة من الاحترام في العلاقات الإنسانية.

وثمة تجربة حدثت معي في السجن تبرهن صحة ما ذهبت إليه: دأب أحد الأسرى في الغرفة التي نقطنها_ وكان عددنا ثمانية أسرى_ على صنع وجبة العشاء يوميًا، وهذا الأسير من الطراز الخدوم والخلق، وكنت حريصًا كلما جلسنا لتناول العشاء أن أشكره أثناءها وبعدها وأمدح طبخته أيًا كانت؛ لأنني في داخلي أنطوي على قناعة أنه وإن بدا غير مكترث إلا أنه يسعد بالشكر كأي إنسان آخر، فلباب الكرامة يشترك فيه البشر كافة، وأذكر أنه لم يكن أحد غيري يصنع مثلي من حيث الشكر والمديح، وكنت أظن أن الأمور على ما يرام، وذات ليلة بعد تناول وجبة العشاء انفرادي وعلامات الغضب والضيق بادية على قسامات وجهه، فانحنى متسخطًا متذمرًا: أمكث في صنع الطبخ ساعتين وثلاثًا على حساب وقتي وشأني، ثم لا أجد أحدًا غيرك يقول لي: «يسلم يديك» أو «يخلف عليك» أو أي تعبير يشعرني أنني قدمت شيئًا أو ضحيت بشيء، يجلسون ويأكلون وينصرفون، هذا غير مقبول، ولا بد من الحديث معهم بذلك.

وبعد هذا الحدث تحققت صحة قناعاتي بما كنت أفعله معه من ثناء، مما زادني لاعتماد لغة الشكر أثناء مجالستي وحديثي مع الأسرى، بل اتباع هذا الفعل منهجًا في علاقاتنا مع بعض لما له من آثار إيجابية جميلة على سلوكنا وأفعالنا لاحقًا، كما أن هذا الفعل يشجع فاعله على الاستمرار



وتقديم المزيد، فلا غرو أن يحثنا الرسول ﷺ على ذلك بعدد من أحاديثه الشريفة.

قل لي شكرًا بعيوني أخدمك:

فإن كان توقع الشكر أو انتظاره أمرًا إنسانيًا لا غضاضة فيه البتة، بل إنه نتاج طبيعي للباب الكرامة، غير أن الصفوة المؤمنة الواعية الداعية لا تنتظر الشكر ولا الثناء، بل يوشكون أن يشكروا هم من تقبل منهم تطوعهم وبادرتهم؛ إذ يرون في فعل الخير وتقديمه للمحتاج ولغير المحتاج أو المجتمع بشكل عام محض سعادتهم الروحية وفيض راحتهم النفسية.

فهم يعدّونهم هدية من الله ﷻ إن أتاح لهم أن يحققوا ذواتهم ووعيدهم لكرامتهم من خلالهم ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ [البقرة: 184]، فالتطوع هو ما فوق الواجب وأحيانًا فوق الممكن والإمكان، وموجه لجميع الناس بصرف النظر عن دينهم أو لونهم أو جنسهم أو أفكارهم، فكلهم خلق الله ﷻ ﴿كَلَّا نُمَدِّدْهُنَّ لَوْلَا وَهَتْوُلَا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20]، إلا إذا كان ظالمًا مفسدًا متجبرًا على الناس ﴿فَلَا عُدُونَا إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 193].

فمواظبتهم على عمل الخير والدعوة إليه [وسنام أعمال الخير ألا يروا إنسانًا تعيشًا بائسًا، وألا يبقى شقاء في الأرض، والعمل على تخفيف البؤس والمعاناة ومنحهم أقصى ما يستطيعون من السعادة: سعادة الدنيا والأخرة] هو أولًا: إقناع لأنفسهم أنهم لا يزالون أهلًا لثقة الله بهم، وتكريمهم باستخلاصهم في الأرض، وثانيًا: تأكيد أنهم على العهد ماضون



وإلى ربهم راغبون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ [المعارج: 32].

فكما أن الطبيب الناجح المختص ترافقه دومًا حقيقة أدواته الطبية، والمهندس المجد ترافقه حقيقة أدواته الهندسية، فإن الصفوة تصطبب معها كذلك وعلى نحو متواصل حقيقة اهتماماتهم وأولوياتهم الاستخلافية، والتي تشمل العمل الدؤوب على اجترار:

1. الحياة الأصلح للإنسان، كل إنسان.

2. البقاء الأصلح للأرض وما عليها وما فوقها وما تحت الثرى.

3. جودة البيئة الأصلح للإنسان والحيوان والطيور والنبات.

غايتهن المثلث تأمين السعادة للعالمين حتى لغير الإنسان، وجدير بالذكر أن التوجه الأصلح في كل شيء هو دعوة مستمرة للتحسين والتطوير في الآلية والمنتج والمقصد ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7].

ثم إن هذه الصفوة تحظر على نفسها قطعًا الدخول المدان في عملية التصنيف بين الناس، من يستحق أن يكون محل اهتمامهم وأولوياتهم والأحوج عندهم مقدم على المحتاج أيًا كانت هويته، فالمولى ﷻ يقول ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: 8]، دون أن يحدد ﷻ هويتهم، وإنما المسكين مطلقًا وكذلك اليتيم والأسير، ثم إن المحتاج عندهم مقدم على المسور في كل ميدان وفي كل وقت مع كل إنسان، فبوصلتهم الحاجة فالأشد حاجة، دومًا وتبعًا لمعاييرهم، مقدم وهو مكرم.



«رب العالمين» وشمولية المسؤولية:

وارتباطاً بما سبق، فيما أن الله ﷻ وحده رب العالمين، رب الجميع مؤمنهم وكافرهم، غنيهم وفقيرهم، أبيضهم وأسودهم، ذكرهم وأنثاهم، فمسؤولية وأمانة استخلافي يكون إذاً حيالهم جميعهم كذلك.

فدوماً الضعيف يتطلع إلى قوي يغيثه والفقير إلى أيسر منه يعينه، والمظلوم إلى أقوى منه ينصره، ومكسور خاطر إلى مواس شهم يجبره، والمريض إلى طبيب يداويه، والعاجز إلى رؤوف يسنده، والجاهل إلى عارف يعلمه ويرشده، والصغير إلى الكبير يرحمه ويأخذ بيده ويسدده.

والصفوة المؤمنة الواعية الداعية هم عنوان هؤلاء جميعاً، والصفوة لا تنتظر صرختهم واستعانتهم، بل هم من يبحثون ويفتشون عنهم أدق التفثيش كما تفتش خماس الطيور عن حبات رزقها وعيدان أعشاشها ويعدون وعيهم لكرامتهم مصاناً إذا ما أغاثوا لهفاتهم وأسعفوا جراحاتهم وقدموا لهم بعرقهم وكدهم، وأحياناً بدمهم، إذا ما تطلب الأمر، شيئاً من خلاصهم وجزءاً من سعادتهم، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]، ويرون بما يقومون به حماية للباب كرامة هؤلاء، والذي هو مقتضى مهم من مقتضيات الوعي للكرامة وبما أن الله ﷻ رب العالمين ورب كل شيء ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62]، وبما فيها الأرض وما دب عليها وما نبت منها، فهي مهادنا وفراشنا، فهي وما حوت وما أقلت مخلوق لنا، فالصفوة يتعاملون معها برفق وحنان ويشعرون بارتباطهم العميق بمشاعر ووشائج المحبة والمصير الواحد فيدأبون على حمايتها من عبث العابثين وفساد الفاسدين وجشع الأقوياء المتغولين.



فيضحكون معها إذا ما غنت وضحكت، ويكون معها إذا ما تأذت وتضررت كأنهم حراسها في الليل حماها في النهار، وعيونهم الساهرة عابرة الحدود والحواجز والآفاق، تكد على حماية الحيوان والطيور وكل ما يدب على الأرض من تنكيل الجهلة والعابثين، ومن تعذيب الأوغاد من الأقوياء، وقساة القلوب من الأثرياء.

إذ إن الصفوة انطلاقاً من وعيها لكرامتها لا ترى نفسها إلا مستخلفة عن الله ﷻ تجاه الأرض، وتجاه كل شيء عليها، وتنظر إليهم بمسؤولية وأمانة الخليفة عن الله ﷻ فيتعاملون مع كل شيء وتجاه كل شيء بالعدل والرحمة والإحسان، ويعلمون تمام العلم أن ما لديهم من مال أو أملاك أو أي شيء، ما هم إلا مستخلفون فيه عند الله ﷻ؛ إذ هو المالك الحقيقي لذلك كله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 107] فيتصرفون بما يملكون وبما عليه يحوزون بالعدل والرحمة والإحسان وليس فقط تجاه من يقعون تحت مسؤولياتهم المباشرة وإنما تجاه كل من سواهم؛ إذ هم خلفاء الله في الأرض عن الله ﷻ، عاكفون ومنهمكون من منطلق الخلافة على الإصلاح والإعمار ووجهتهم دوماً نحو السعادة ونحو التطوير لتحقيق الأصلح والأنفع.

فهم ليسوا في حالة صراع مع الطبيعة ولا منسحجين من الحياة الدنيا، بل هم أمناء على الطبيعة رعاية وحماية، وتخالطهم مشاعر المحبة والحنان مع الأرض، وكما قال ﷺ عن جبل أحد: «أحد جبل نحبه ويحبنا»⁽¹⁾ وسياستهم ليست السيطرة عليها والتغول فيها بل إعمار الأرض وحفظها من الفساد والتلف.

(1) جزء من حديث رواه مسلم في حديثه.



والحياة الدنيا هي ساحة استثماراتهم بما يملكون من وعيهم لكرامتهم؛ إذ بالتفاعل معها والانخراط فيها تتاح لهم الفرصة ليشبثوا جدارتهم بثقة الله ﷻ، وبأهلية استخلاصهم عليها، وفي سبيل ذلك فإنهم لا يزهدون بالمال أو يعزفون عنه كما يظن البعض أو كما يريد لهم البعض، إنما يرون به رزقاً سيق لهم بكدهم وتعبهم لينهضوا بمسؤوليتي عمارة الأرض وبنائها أو بتفريج الكرب عن الناس واجتراف فرص العمل لهم فإن هم -مثلاً- شيدوا مصلحة أو متجرّاً أو مصنعاً ووظفوا به عمالاً يسترزقون منه، فلأنهم يرون به مسجداً يُعبد الله ﷻ فيه، إذ به يمدونا هؤلاء الناس بالحياة النظيفة الشريفة التي تحفظ لهم كرامتهم وأمنهم الأسري، وتحولهم القدرة على رسم الفرحة والسعادة على وجوه أطفالهم وعائلاتهم وتملأ قلوبهم محبة ورضى وغنى بدل أن تملأها البطالة والتسكع حقدًا وكفرًا وعمى، ويمنحهم تأمين مكان العمل الكريم أيضًا الوقت للعبادة والتفكير والانخراط في هموم المجتمع بعد ما عولجت همومهم مما يساعد على تكاثف المجتمع برمته، وسهرهم لصالح الجميع.

«الرحمن الرحيم» وخلق الرفق والحزم:

الصفوة مجتهدون للتخلق بأخلاق الله -تعالى- عبر محاكاة أسماؤه الحسنی وصفاته الفضلی، ومنها أنهم يواجهون كل شيء ويعالجونه بخلق الرحمة الذي لا ينفصل ولا يعتزل سلوكهم البتة في كل شيء ومع كل أحد حتى وهم يعاقبون المجرم والمذنب على ذنبه أو جريمته، فإن رأفتهم تضخ عليهم رحمة مع كل نبضة تنبضها قلوبهم، ومع كل رمش عين تطرف بها عيونهم.



فهم غير مشغوفين بالبحث عن المذنبين والمسيئين، بل يسترون ما كان الستر أصلح، ويتجاهلون إذا ما كان التجاهل أصلح آخذين بقول الحبيب ﷺ: «من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة» [رواه مسلم]، ويقولون ﷺ: «من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربة يوم القيامة» [رواه البخاري ومسلم].

فكما أن رحمة الله ﷻ قد وسعت كل شيء ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، فكذلك تفيض الرحمة من قلوب الصفوة خلفاء الله في الأرض، والتي هي من فيضه تعالى عليهم، وعلى من حولهم من مظلوم ومحتاج وعاجز ومغلوب على أمره الذي لا حول له ولا قوة إلا بالله حتى تستغرق رحمتهم الحيوان والشجر والطير والجبل وكل شيء يدب على الأرض دبا، شعارهم حديث رسول الله ﷺ «الراحمون يرحمهم الله» [صححه الألباني]، وقوله ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» [رواه الترمذي].

ويتذكرون دوما كلام ربهم ﷻ إلى نبيهم وحبيبهم محمد ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] عالم الناس وعالم الحيوان وعالم النمل وكل العوالم الذين استخلفهم الله ﷻ عليهم، فلا تصطبغ علاقاتهم بهم إلا بالرحمة ولكي تتمكن الرحمة في قلوبهم وقلوب البشر على الحيوان الضعيف ويدركوا تمام الإدراك أن الرحمة المطلوبة أوسع من أن تقف عند حد أو حظ، وأنها تطال كل شيء، وأحد يعاني الضعف وتعوزه بالرحمة، فقد سرد الرسول ﷺ للصحابه ولنا إلى يوم الدين حديثه المعلم: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلب



يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملاً خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله -تعالى- له فغفر له» قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»، وفي رواية أخرى له ﷺ «إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يَطِيفُ بِبُئْرٍ قَدْ أَذْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ فَتَرَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغَفَرَ لَهَا» [رواه البخاري ومسلم].

وأنقل هنا ما قاله الإمام الغزالي تعليقاً على هذه الأحاديث: «لئن كانت الرحمة بكلب تغفر الذنوب فإن الرحمة بالبشر تصنع العجائب»⁽¹⁾.

فهم قد رأوا كيف اصطبغت علاقته ﷺ بالرحمة ليس فقط مع أصحابه ﷺ، بل مع الكافرين برسائله وبما جاء به، الذين ناصبوه العداوة وأذوه وأخرجوه من بلده موطنه الحبيب على قلبه (مكة) ومنها حينما عاد ﷺ مهموماً مكدوداً من الطائف دون أن يظفر بما رغب فيه من نشر لدعوته بين أهلها، عرضت عليه الملائكة بإذن ربها أن أراد أن يطبق على أهل مكة الأخشبين -جبلان حول مكة- رفض ﷺ وقال مقاتله الخالدة الطافحة بالرحمة العابرة بالواقع الميرير إلى المدى البعيد: «كلا، لعل الله ﷻ أن يخرج من أصلاهم من يعبد الله ﷻ وحده لا شريك له» [صحيح البخاري]. حتى وهو ﷺ تحت مطرقة وخذلان قومه له وإضرارهم به لم ينس أمرين: الأول: أنه مبعوث رحمة للعالمين، غير منتقم ولا متجبر رغم قدرته على البطش والأخذ بالشار.

(1) محمد الغزالي، خلق المسلم، ص 217.



والثاني: النظر إلى البعيد بأمل وتفاؤل وصبر بالرغم من صعوبة اللحظة وخرج الموقف، فلم يكره ولم يغوه الشعور بالقوة والقدرة على الضرب بالنار والحديد، ولم يحجبه لبد غيوم الغم والكرب عن التطلع إلى الأفق البعيد، فكان ﷺ حقاً رحمة للعالمين.

وتجلى ذلك أيضاً بسلوكه ﷺ مع كبير المنافقين أبي بن أبي سلول حينما كان خارج المدينة وقال: ما أمرنا وإياهم - يقصد محمد ﷺ وصحبه - كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: 8] قاصداً الرسول ﷺ، فبلغت مقاتله تلك إلى مسامع الصحابة رضي الله عنهم والرسول ﷺ، فهاجت وماجت المدينة تتوعد هذا المنافق، وأراد بعضهم أن يقتله جزاء وفاقاً، غير أن نبي الرحمة ﷺ منعهم من اقرار ذلك، ولما بلغ ابنه عبد الله - وكان مؤمناً صادقاً - أن بعضهم توعد بقتل أبيه، وهو يعلم أنه يستحق ذلك أسرع إلى رسول الله ﷺ عازماً على ذلك، مبرراً للرسول ﷺ أنه يخشى إن قتل أحد غيره أباه أن تطوع له نفسه بقتل قاتل أبيه، فيكون قتل مؤمناً بكافر فيدخل النار، فماذا كان رد نبي الرحمة ﷺ تجاه طلب ومناشدة هذا الابن المؤمن الصادق، وتجاه ذاك المنافق أبيه؟ قال ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

إن من فيض رحمة رسول الله ﷺ أنه لم يتوقف عن الإمساك عن قتله فحسب؛ بل تجاوز إلى معاملته برفق، وحسن الصحبة، ما اختار هو أن يبقى معهم.



وهل توقفت رحمة رسول الله ﷺ عند هذا الحد؟ بالطبع لا، إذ بعد موت المنافق، أراد الرسول ﷺ، فحاول عمر رضي الله عنه أن يقنعه بغير ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لو أعلم أنّي لو زدتُ على السبعين غُفْرُ له لَزِدْتُ»⁽¹⁾ ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 80] والنبی ﷺ صلى عليه، وبعد دفنه نزلت الآية التي تحرم الصلاة على المنافين ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَى أَبَدًا وَلَا تُقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: 84].

والصفوة تدرك أيضًا، أنه لا بد لها أن تبقى تتطلع إلى رحمة الله ﷻ وتوفيقه لها؛ إذ الأخطاء والذنوب لا تغادر أحدًا «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» [صحيح الإسناد عند الحاكم]، فكما هي تريد أن يرحمها ربها فإنها تتنجح دومًا إلى أن ترحم غيرها من خلق الله ﷻ «الراحمون يرحمهم الله» [رواه الترمذي].

وهذا الخلق خلق الرحمة، الذي تتحلى به الصفوة شعورًا وسلوكًا مصدره وعيها لكرامتها، فلا عجب أن تتلبسها الرحمة تلبسًا، تعيش معها بين حالتي طلب الرحمة من الرحمن الرحيم من جهة ومزاولتها مع الخلق الذين تشملهم أمانة استخلاصهم في الأرض من جهة أخرى إذا كان اسمها الله ﷻ الرحمن الرحيم المذكورين في البسملة قبل سورة الفاتحة، وفي بداية السورة نفسها التي نكرها في صلواتنا عشرات المرات في اليوم والليلة.

حتى وهي تعالج بالحزم ما يحتاج إلى حزم تبقى الرحمة ماثلة أمام ناظرينا: «ما دخل الرفق شيئًا إلا زانه وما نزع الرفق من شيء إلا شانه»

(1) صحيحه الألباني.



[رواه مسلم]، فالحزم لا يعني أنه لا خيار أمامك سوى ممارسة العنف والشدة؛ بل إن أساس الحزم هو إصرارك على تأدية رسالتك بأمانة، ومثابرتك على تحقيق أهدافك باستقامة؛ إذ لربما ينجز بالرفق أهدافه، ولا ينجزها العنيف الشديد، فالرسول ﷺ يقول: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي سواه» [رواه مسلم]، فلمعالجة الأمور والأحداث والتعقيدات المقترنة بأسلوب اللين والرفق مفاعيل إيجابية وآثار نفسية مفيدة بعيدة المدى.

فالمرء حينما يتعامل مع إنسان آخر، هو عملياً يتعامل مع عقله، ومع لباب كرامته، وعندما نقول عقله، فهذا يعني وجوب احترام عقله أيًا كان مستواه، وذاك بالحجة والمنطق ولغة المصالح، فكثير من الناس تنشأ قناعاتهم على قاعدة المصالح والمنافع، فإنه إذا ما توفر لدى أحدهم الاقتناع بفرص تحقيق مصالحه أو جزء منها ضمنت منه الاتجاه والسلوك بأقل الخسائر والمجودات.

ولا عجب في ذلك، فإذا ما أمعن المرء النظر في لباب الكرامة التي تعني عمق أهمية الإنسان بنظر نفسه واعتداده واعتزازه بها، وهذا اللباب كما ألمحنا سابقاً هو على ما يبدو الظلال الراسخة التي تلقيها ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] عميقاً في ذات الإنسان كل إنسان، أيًا كان هذا الإنسان سيدرك بأن من هذا اللباب الذي تتخلله كل ذرة من ذرات ذات الإنسان تنبع نزعتة وجنوحه نحو تحقيق منفعه ومصالحه ليشبع لباب كرامته وجوعه إلى تأمين وتأکید اعتزازه واعتداده



بذاته، وعمق أهميته للآخرين، بمعنى آخر: إن تأكيد الذات يتطلب من الإنسان على نحو تلقائي السعي الدائم إلى تحقيق مصلحته ومنافعه.

فالسعي وراء المصلحة والمنفعة من أهم المحركات الكبرى لسلوك الإنسان وتحركاته، فلا تلو من أحداً يكد ويجهد لتحقيق مصالحه أو طموحاته، فهذا خطب محمود ومطلوب ما لم يكن على حساب المبادئ أو حقوق الآخرين، ولو لم يكن الأمر كذلك لما حثنا الرسول ﷺ على الجد والكد في طلب ما ينفعنا؛ إذ إنه قال ﷺ: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» [رواه مسلم]، وإن أرقى مصلحة ومنفعة تكد وتكدح لتحصيلها هي تلك التي تنفعنا بالدنيا والآخرة، وإن كان لا خير إن كانت تنفع بالدنيا فقط، لكن من غير مضرّة بالآخرين أو بالقيم والثواب.

ذات مرة، ألبأنا ظروف السجن القاهرة إلى أن نستقدم أحد الأسرى إلى غرفتنا ليملاً شاغراً، ونحن نعرف أن هذا الأسير مشكوك في مصداقية وطنيته من قبل بعض الأسرى رغم كونه يتصف بالبساطة إلى حد المسكنة، وسبب الطعن بمصداقية وطنيته من بعض الأسرى تصرفات بلهاء كانت تصدر عنه، لربما تفسر بعدة معاني، لذا كنت أشك في الشك فيه.

ولعل بساطته هي السبب الذي أغرانا لاستقدامه، وعندما عرضنا عليه قدومه إلى غرفتنا للسكن، طلب التريث وحينما عاد أبلغنا على بساطته بأدب جم. رفض طلبنا، وساق لنا الحجج المبررة لعدم قبوله، والتي تصب كلها في أن مصلحته في تلك المرحلة تتطلب أن يرفض ويعتذر، ولم



نكن نتوقع رفضه قط، كقول المثل: «رضينا بخراب البين، وخراب البين ما رضي فينا».

ومن هنا كان دوماً تشديدي على عبارة (كل إنسان) فلكل إنسان مهما بدا بسيطاً حاجات وطموحات، وهو يسعى ويكد لتلبية حاجاته حتى يبقى، وفي نفس الوقت أو على نحو منفصل تجده يجتهد لإشباع طموحه وتطلعاته لكي يرقى ﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]؛ إذ إنه في كلتا الحالتين يكد ويكدح لنيل مراده.

ولا نفع من الدخول في تفاصيل رفضه، لكن ما أدهشنا هو حساباته وتحليلاته لما قد ينفعه ويضره في المستقبل إذا ما قدم إلينا، ما زادني اقتناعاً بقدرسية احترام كرامة الإنسان أياً كان هذا الإنسان، وإن مصلحته في جلب منفعة أو درء مفسده هي محركه الأكبر بلا ريب.

ولو أمعن أي إنسان النظر في أعماقه في تقصي دوافع أي تصرف من تصرفاته لوجد أن ثمة مصلحة أو طموحاً يقبع خلفه يسعى لإشباعه، وخير المصلحة أو الطموح هو الذي يحقق له المنفعة في الدنيا والآخرة، بمعنى أن الإنسانية إن لم تكن صالحة فإن ذلك سيؤدي للخسران المبين، ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 1 - 3]، وإن القرآن الكريم في كثير من المواطن يتحجب إلى الناس بلغة المصالح والمنافع، أي بميزان الربح والخسارة، وكثيرة هي الآيات التي تشير بهذا الاتجاه ﴿هَلْ أَذُكَّرُ عَلَىٰ نَحْرِهِ



تُجِزُّكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٥﴾ [الصف: 15]، وأصلاً ما جاءت الشريعة إلا لتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة فحيث كانت المصلحة فثم شرع الله ﷻ هكذا قال الأولون.

ولا شك أن الصفوة الناجحة تدرك تمام الإدراك أنها لكي تكون مسموعة وتجد لها في قلوب الناس هوىً ينبغي لها ألا تكون معزولة عن همومهم ومصالحهم وأوجاعهم؛ بل تكد وتسهر لتكون لهم جسراً يعبرون عليه إلى بر أمانهم ومنتهى آمالهم، وتكون مثوى لهم عند فزعهم وعند عوزهم وفقرهم، منخرطين ومتداخلين بين الناس يتلمسون عن حب ولهفة آهاتهم وأنانهم لكي يسمعوها ويعالجوها، وليس محلّقين عالياً فوق الناس يجترون شعارات وخطابات رنانة خاوية من أي محتوى عملي حقيقي، وذلك لأن راحتهم كما قال الأولون يجدونها في التعب لأجل نفع وإسعاد الناس كل الناس «خير الناس أنفعهم للناس» [أخرجه ابن حبان]، ودون أن يسألوا الشخص عن هويته، ودون إرادة تبعيته فما هي إلا لوجه الله ﷻ وشعارهم ﴿إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: 9].

وإنك لتراهم يعالجون أوجاع الناس وحاجاتهم بأنامل وسواعد الرفق واللين والتواضع مراعاة للباب كرامتهم الذي هو شديد النفور والحساسية للمتكبر والمتعالي حين إسعافهم وإغاثتهم وشديد المحبة للتماهي بصدق مع أوجاعهم وحاجاتهم.

فالرفق إذاً خلق عملي وضروري في جميع الأحوال، وكما هو مطلوب بشدة عند الإغاثة والإسعاف، فكذلك الحاجة إليه أشد عند



الخلافات والأزمات، ولا يقدر على أسلوب اللين والرفق في كلتا الحالتين القوي الشديد، ولا سيما في الحالة الثانية، فالإنسان بطبيعته يمقت ويرفض الفرض والإكراه؛ لأننا هنا قد دخلنا أيضًا في دائرة لباب الكرامة الذي هو في منتهى الحساسية لأسلوب العنف والقسوة، ولأن في العنف والشدة دعوة واستنفارًا لكل عناصر المقاومة والرفض والصد.

واللين والكلمة الطيبة مفتاح جيد للباب الكرامة لدى الإنسان حيث به تفتح أبواب استعداداته للاستماع والتقبل والأخذ والرد؛ لذلك فإنك ستجد الصفوة تستلهم من حديث رسول الله ﷺ: «الكلمة الطيبة صدقة» [رواه البخاري ومسلم] معنىً إضافيًا إيجابيًا آخر غير الفهم التقليدي لكلمة صدقة الذي يعني أجر الصدقة وثوابها.

والمعنى الجديد المستلهم هو أن للصدقة مفاعيل إيجابية بالغة الأثر على المتلقي، فكما أن الصدقة على الفقير أو المحتاج تورث في نفسه وقلبه سعادة وفرحة لانفراج شدته وحلحلة كربته، وتذهب ما بداخله من شحنات الحقد والحسد الذي يخلفه فيه الفقر والحاجة تجاه من هو أيسر منه وأغنى، فكذلك صدقة الكلمة الطيبة والرفق ومفعولها يعدم في داخل المتلقي حواجز وهواجس ووساوس حيال مرسل الكلمة الطيبة ونواياه وتُحيلة من إساءة الفهم والظن به إلى حسنه، ومن وادي التردد والتباعد إلى وادي التودد والتقارب.

وتبرز قوة مفعول الكلمة الطيبة حالما يلحق بالعلاقات مكدرات وشوائب سلبية تكدر صفوها، والمبادر بالكلمة الطيبة حينها لكسر



الحواجز والوساوس هو من اجتمع فيه الوعي والجلد؛ لأن كلا الطرفين يتقلبان بين حجري رحى الوساس الطاحنة التي تشحن أحدهما على الآخر «وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» [رواه البخاري ومسلم] كما قال ﷺ ولما كان هو البادئ فهو الأكثر وعياً والأشد جلدًا.

وأمثالنا لم تبخل علينا بحكمها مثل «لا قيني ولا تغديني»، «الكلمة الحلوة تطلع الحية من وكرها»، والمفعول الإيجابي للكلمة الطيبة ينسحب على البسمة الصادقة وعلى كل بادره هادفة.

ولطالما في سجنني كنت أعرض لوساوس طاحنة حيال هذا الأسير أو ذاك، وما أن ألتقى منه البادرة الصادقة حتى أشعر بتهدم الغمة وتبدد الظلمة في صدري، وتوثته بنور الفسحة فتبسّطها وتجدد الهمة فيه وتنشطها.

فكنت أذهل لما أشعر به في داخلي من الأثر الإيجابي البليغ الذي تحدثه بادرته الصادقة، وإن بدت بسيطة ومتواضعة، فكنت حقاً أمتلى فرحة وسعادة وتنفجر في داخلي همة وحيوية كهمة الصباح وحيويته المندفعة، فيزداد اقتناعي رسوخاً بأهمية وأثر الكلمة الطيبة والبسمة الجميلة والبادرة الصادقة؛ لما لها من وقع خاص على نفسية الإنسان.

وثمة آية قرآنية تعبر أفضل وأجمل تعبير عن هذه الحالة ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: 53].

والصفوة تصطفي القول الأحسن وتقول له للمختلفين معها أو المخالفين



لها؛ لأن غرضهم ليس الانتصار لأنفسهم أو شفاء غليلهم أو التشفي، والأسلوب الذي يهدم ويسبي يهدم الحواجز والوساوس والهواجس الداخلية ويبني جسور الثقة والسواتر الدفاعية من نزغات ووساوس شياطين الإنس والجن؛ لأنهم يستثمرون في قلوب الناس بأسلوب البناء والهدم استثمارات بعيدة الأجل، وينظرون إلى البعيد بنظارات الأمل لا يتعجلون أو يستطيّلون الطريق، وقدوتهم في ذلك مسلك رسول الله ﷺ عندما رفض هلاك قومه وقال: «لعل الله ﷻ يخرج من أصلابهم من يعبد الله ﷻ لا شريك له» [صحيح البخاري]. لم يحركه ﷻ الشار أو النعمة أو السخط؛ إنما حركه فيهم التفاؤل والأمل ومصلحة الدعوة والرسالة.

89 ذات مرة تخاصم اثنان بالغرفة التي أقطنها لدرجة بدت للناظر ألا مكان للصلح بينهما قط، وحقًا كنت أجول بين الاثنين أحاول إقناعهما بالتصافح، واستمرت محاولاتي الفاشلة لعدة أيام متتالية، وكنت ألتقي من كليهما جوابًا يقسم به أحدهما أن لن يتصالح مع الآخر أبدًا مثل: «قد مللت منه، أو لو تقع السماء على الأرض ما يتصالح معه». وكنت أشعر في كل محاولة أنني ارتطم بجدار من باطون، أو شك اليأس أن ينال مني، فأسررت في نفسي أن أتروى معهما قليلًا لريثما أنظر بطريقة أخرى أجدي وأنجح، وإذ بي ذات مساء أتفاجأ برؤيتي لهما يتصاحكان ويتبادلان الحديث دون سابق إنذار ودون أن تغادرهما علامات الفرح، وهذا لاشك الفرح الذي يبعثه الصلح في قلوب المتصالحين؛ لأن الصلح الصادق يغسل ما تلطخت به النفس من ملوثات الشحنة كالحقد والضغينة والوساوس الشريرة ويجعلها أكثر بياضًا ونقاءً وتقبلاً للآخر «كابوس الأمس»، وحينها



تسنت لي الفرصة سألت أحدهما: بالأمس فقط كنت تقسم أنك لن تتصالح معه ما الذي جرى؟ غطت وجهه البسمة ثم قال: يا أخي ما أن بادر معي بكلمة طيبة باسمه حتى شعرت أن جبال الحقد والضغينة التي تراكمت في داخلي وعمت قلبي انهارت دفعة واحدة وكأن شيئاً لم يكن، وحتى إنني شعرت بلينة قلبي تجاهه وتبرعم حبات الود حياله، فقلت في نفسي: سبحان الله هذا هو أثر الكلمة الطيبة، وسعدت أكثر بالآخر الذي بادر بالكلمة الطيبة والبسمة الصادقة، فهو لا شك الأقوى بينهما.

وإذا عدنا إلى أسلوب الرفق كأحد انبثاقات الرحمة فإنه لا يعني البتة في حالة الخصومة بين اثنين اعتماد ما نسميه عندنا في السجن أسلوب (الطبطة) لفكفكة الخصومة ومعالجتها؛ أي أن تكون غايتك القصوى في المعالجة المصالحة بينهما عبر استرضاء الاثنين دون إغضابهما، ودون تقصي وتبيين خطأ المخطئ منهما وتحميله مسؤولية خطئه؛ لأن أسلوب (الطبطة) لا يعني إلا شيئاً واحداً: تكرار الإشكالات والخصومات بينهما وبين الآخرين، وبهذا الأسلوب لن تساهم في تشييد نظام الردع والعقاب والثواب، وهما أهم أعمدة تجمع بشري يطمح إلى حياة تنظيمية متماسكة ورشيدة وقابلة للتطور والعطاء.

شخصياً أعترف أنني في السنين الأولى من أسري استخدمت أسلوب (الطبطة) عن حسن نية، لكنها ساذجة وتفتقد للحس التنظيمي السليم، أسلوب (الطبطة) «وبالطبع لم أكن أسميه بهذا الاسم، وإنما كنت أسميه الحل الأخوي وهو ما يعني إحداث التصالح بين الأطراف من خلال



استرضائهم جميعاً دون الحزم في إظهار مسؤولية كل واحد منهم عن نسبة خطئه ومعاقبته تبعاً لذلك، وكنا نكتفي بأن يقول أحدهما للآخر: «حقك علي، سامحني» ثم نطوي هذه الصفحة و «يا دار ما دخلك شر».

وهذا الأسلوب اتضح لي أنه من أكبر الأخطاء الإدارية الفادحة في أي تجمع إنساني منظم؛ إذ إنه لا يقدم حلاً حقيقياً وجدياً للمشاكل التي تشب بين اثنين؛ بل سيكون دعوة غير مباشرة للآخرين أن يأخذوا حقهم بأيديهم أو أن يفعلوا ما يشتهون من إساءات للآخرين، أو افتعال إشكالات؛ إذ إنهم يعلمون أن الحل الأخوي جاهز ورأس مالها أن يقول: «حقك علي، سامحني» وحتى في بعض المرات كان أحدهما يرفض أن يوجه عبارة «سامحني» مباشرة للطرف الآخر خصمه؛ وإنما كان يتوجه بها للجميع الأسرى في الغرفة بقوله: «سامحوني إذا أزعجت أحداً منكم؛» «إذ إنها كما يظن -مخطئاً- أقل انتقاصاً من قدره ومن كرامته.

تبين لي لاحقاً أن هذه الحلول ليست حلولاً وإنما مسكنات موضعيه على الطريقة (الأخوية) التي ليس بينها وبين العمل التنظيمي السليم أدنى صله، بل هي معاول هدم وتقويض لنظام العقاب والثواب ولعنصر الردع اللاجم لنزوات المستهترين أو الطائشين الذين لا يخلو منهم أي تجمع تنظيمي .

والأشد غرابة أن أحد الأسرى الذي شاركني في إحدى حقبة أسري الغرفة عدة سنين، ورغم أنه كان إنساناً جيداً في جوهره، غير أنني بين الفينة والأخرى أجده طرفاً في مشكلة مع أسير آخر، وبالطبع كنت



أعالجها بالطريقة الأخوية، والآن أقولها إنه بلا ريب كان يكرر مشاكله؛ لأنني كنت أعالجها بـ (الطبطة) وبالطريقة الأخوية.

وقد اعترف لي فيما بعد بأنه كان ينخرط في مشاكل متتالية لاطمئنانه بوجودي، وبأنني سأحلها على الطريقة الأخوية، أي أنه بدل أن يتعلم الصبر والحلم والتنازل والمسامحة لأخيه كان يُفَلت لجام نزواته وشططه عليهم عند أدنى احتكاك معهم، والسبب بالطبع اتكاله على أسلوب (الطبطة)؛ لأن أسلوب العقاب والثواب الذي حُرِم منه كان سيجعله يرتدع ويعيد حساباته ما يضطره أن يتصبر ويتحلم ويتنازل ربما في البداية عن الأمور الصغيرة وخوفاً من العقاب، لكنه مع مرور الوقت ما يلبث ويشعر أن ملكات الصبر والحلم عنده تترسخ رويداً رويداً، وتحل محل الصبر وتكون جزءاً من سجيته وشخصيته؛ إذ إن الصبر بالتصبر والحلم بالتحلم.

92

صحيح أنه لم يقصد أن يكتسبها ويتعلمها، ولكنها بفضل الردع والعقاب والثواب فرض عليه، فيصبح مع قادم الأيام واسع الصدر كثير التحمل والصبر بعد أن كان يُستفز ويغضب لأبسط الأسباب أو أنفها.

وهذه التحولات الإيجابية التي تحدث مع الأسير قد شاهدها وعاشتها مع أحد الأسرى الذي قد سجن حديثاً وحكم عليه بالمؤبد، وكان عصيماً ولا يتنازل ولا يلتفت إلا لنفسه وراحته ولا يهتمه الآخرون، والنتيجة أنه كان كثير المشاكل والمتاعب، وبهذا اشتهر فقلما كنا نجد غرفة تقبله.

ثم فارقه سنين طويلة حيث تنقل في سجون أخرى، وبعد نحو عقد من الزمن التقينا به ثانية في نفس السجن وفي نفس الغرفة، وصرت



أرغب حركاته وتصرفاته وأرصدها لأنظر أطرأ ثمة تغيير على سلوكه أم بقي على حاله عصبياً وأنائياً وصدامياً، لكن سعدائي قد تنفست وأساير قلبي انفرجت بعد أن وجدته تغير كثيراً عن السابق؛ إذ بات ذا صبر وحلم وتعاون، باختصار صار صدره واسعاً وتحب معاشرته، وحينها سألته كيف تغير حتى غدا إنساناً آخر.

بعد أن ارتسمت على وجهه بسمة قد أرقها عناء الأسر وتعب السنين قال بلغة الأسرى: «نجرتني الحبسة»، أي: هذبتني، وذاك بعد أن وصل للاقتناع بأن حاله يوجب عليه أن يتغير كيلا يبقى تحت طائلة العقوبات أو الانتباز من غالبية إخوانه الأسرى، فصار يجاهد نفسه تهذيباً وتشذيباً أو ما تسميه عندنا يتنجر حتى أضحى أسيراً جديداً، أسيراً آخر.

والغربة الملفتة أنه رغم اعتراف ذاك الأسير لي باتكاله على أسلوب معالجاتي الطببائي إلا أنني لم أفطن أن أغير أو أبدل من أسلوب في معالجة الخلافات والمشاكل، وأجنح نحو الحل الأخوي لقلة تكاليفه لي شخصياً، لكن كما قلت كان هذا على حساب البعد التربوي والمنطق التنظيمي السليم، ومن تبعاته أيضاً أنه لم يجلب لنا (هداة البال) أو الجو الأخوي.

صحتي من وهم الحل الأخوي كانت بعد فترة من ذلك الاعتراف ومع أسير آخر؛ إذ إن هذا الأسير تشاجر مع زميل له في الغرفة، أصلحت بينهما كما دأبت عادتي في الإصلاح الأخوي، ثم بعد حين دخل في مشكلة أخرى مع أسير ثانٍ، فقممت بالإصلاح على نفس الطريقة، لكنه هذه المرة قبل إصلاحه على مضض؛ إذ بدا له أن الحق معه مائة بالمائة، جاءني بعدها



وقال لي ناصحاً: طريقتك في الحل غير صحيحة، كان يجب أن تبين خطأ المخطئ وأن تحيله للمحاسبة والعقاب.

صدمة كلامه أحدثت عندي تلك الصدمة؛ إذ كان قسطه في المسؤولية لا يقل عن قسط زميله بالمشكلة، أجريت بيني وبين نفسي مراجعات وتقييمات وموازنات، ووصلنا للنتيجة الصحيحة تنظيمياً، ينبغي العمل حسب نظام العقاب والثواب العادل في صفوف تجمعنا، بعد أن غرقنا وذقنا كل سلبيات الحلول الأخوية إذا أردنا حقاً أن نعيش الحياة التنظيمية والحالة التنظيمية المنضبطة؛ لأنه إذا غاب التنظيم فمرحباً بالغاب، وثمة آية من سورة الأنفال تعبر خير تعبير عن فظاعة العواقب وفداحة الضرر لمثل تلك الحالات ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 25]

إنه إن لم تعالج المظالم وترد الحقوق إلى أصحابها بحيث يكون الظالم تحت طائلة المساءلة والمعاقبة بأن ينصاع لقانون الجزاء العادل فإن الآثار السلبية للنكوص عن هذه الإجراءات العادلة سوف تطال الجميع وتأتي على كل شيء -الكل التنظيمي- ولا سيما الحالة التنظيمية التي تعني من بين ما تعنيه الشعور بدفع الانتفاء الجامع للفكرة المشتركة والنظام الموحد والشعور بتوفر الأمن والأمان وسيادة العدالة.

فالرفق إذاً لا يعني البتة مزاولة الطبطبة حيث توجد مظالم وحقوق منتهكة أو مسلوقة، وإنما في مثل هذه الحالات المطلوب هو الحزم التنظيمي العادل وفقاً للقوانين واللوائح الداخلية المعمول بها.



إذ إن غياب المعالجة التنظيمية الحازمة العادلة كما أجهلت من قبل، هو في حقيقته دعوة للمظلوم إما أن يأخذ حقه بيده وهنا يكمن تفاقم الإشكال وتعقيد الوضع باتجاه التمدد وصبوب الفوضى فوضى الغاب حتى تستغرق الحالة التنظيمية برمتها وبالتالي الضعف والتراجع وربما التفكك والضياع، أو إنه يتردد إلى ما قبل الحالة التنظيمية والبحث له عن (كوتة) من داخل التنظيم الواحد تحميه عند الضرورة أو حتى يستقوي بها لاحقاً لأجل السيطرة والتسلط كالارتداد إلى الشللية أو البلدية أي إلى الهوية المحلية البدائية: مثل أبناء المدينة الواحدة أو القرية الواحدة أو المنطقة الواحدة على حساب الانتماء التنظيمي والهوية الوطنية والفكرة الجامعة، وهذا المصير الكارثي يمكن تفاديه والنجاة منه فقط بوجود واعتماد الحياة التنظيمية الحازمة والعادلة والناظمة.

فمتى توفر لأي تجمع بشري قدرات تنظيمية عالية ومستوى تنظيمي عالٍ، فإنه فضلاً عن تمتعه بالحياة العادلة والخلاقة فستضاف له قيمة إضافية أخرى، وهي قدرة هذا التجمع على توظيف جميع الطاقات والقدرات المنتشرة هنا وهناك، والتي كانت تحتاج فقط إلى الآلية التنظيمية والأهداف والرؤية المشتركة لكي تجمعها، أي أن القدرة التنظيمية تشكل أهم عوامل وروافد القوة لأي تجمع بشري ذي أهداف مشتركة.

وإذا عدنا إلى الأسير الآخر الذي نصحني بتصحيح طريقتي فإنه بعد مشكلته الثانية بأيام كان قد تورط في مشكله أخرى مع أحد زملائه في الغرفة، وقد تصادف من وجهة نظري هذه المرة أنه هو من كان يتحمل المسؤولية بالكامل على المشكلة، وماذا أصنع إذا كان هو أول من تطبق



عليه النظرية التنظيمية التي تبينها بعد نصيحته، فقلت له إن خطأه هو الذي فجّر المشكلة وهو يتحمل المسؤولية، ثم أحيّله إلى اللجنة الإدارية لمحاسبته، وفعلاً تمت محاسبته ومعاقبته، وقد شاهدته لمدة ثلاثة أيام وهو يجري حساباته ومراجعاته بينه وبين نفسه، ثم واصلت رصد له من بعيد لكي أرى إن كان ثمة تغير قد طرأ على تفكيره وسلوكه، والصرامة بدأت أشعر عليه تلمس الحذر في سلوكه وعدم التسرع، ويبدو أنه أدرك أو بدأ يدرك أن للسلوك الأهوج والأعوج مع الآخرين عواقب لا مناص من دفعها أي أنه بدأ (يتنجر) بلغتنا.

أما بالنسبة لي فقد ترسخ لدي الاقتناع بخطأ أسلوب الطبطة ونجاعة الأسلوب التنظيمي العادل في العقاب والثواب، وبعد رده من الزمن كان قد صار حني بأنه وجد في نفسه شيئاً علي؛ إذ إنه شعر آنذاك أنني قد انحزت لصالح غريمه في المشكلة على حسابه، فقلت في نفسي إذا كانت هذه هي خسائر المعالجة التنظيمية الحازمة العادلة إزاء خسائر حلول الطبطة فإنني بلا ريب أستحق العقاب على تلك المرحلة.

إذاً نستطيع القول إن الحزم في تناول الأزمات وفكفتها لا تعني تغييب الرفق في المعالجة وإن الرفق في المعالجة لا يعني أبداً أسلوب الطبطة الفاشل، وإنما الأصح (الحزم بالرفق)، أي تناول كل مشكلة على حدة فمعالجة أول مشكلة لأسير، وليس فيها اعتداء فاحش على حقوق الآخرين، ليست مثل معالجة مشكلة متكررة من نفس الأسير؛ إذ يبدو إن مكرر المشكلة قد فهم الرفق بالحزم خطأً، وظنه ضعفاً من التنظيم، أو ظنه تنظيمياً طبطبائياً، وهنا ينبغي معه الحزم العادل عقوبة له وردعاً لغيره.



لذا فإنه يمكن معالجة المشكلة الأولى البسيطة من الأسير بتنبهه وتحذيره، لكن من قبل التنظيم الرسمي وليس من أي أحد آخر مهما بلغت درجته أو مكانته حتى يدرك الأسير وكل أسير أن التنظيم يتابع ويراقب حتى في أبسط الإشكالات وأهونها، وإنه قد يحال إلى المحاسبة والمعالجة إذا ما كرر افتعال المشاكل مهما بلغت حدتها، وهكذا تكون الصفوة قد حافظت محافظة شديدة على التوازن ما بين الحزم والرفق في مواجهة الأزمات والإشكالات وعالجتها بطريقة رشيدة، ولا شك أن هذا الأسلوب أسلوب («الرفق بالحزم») بمعنى استهلاك المعالجة بالرفق واللين مع حسن الظن والطوية، ثم الذهاب إلى الحزم العادل إذا ما دعت الحاجة الحقيقية لذلك، ويصلح مع الآخرين والجهات الذين هم خارج إطار التجمع التنظيمي.

وأقول ذلك لأنه حدث معي شخصياً في حقبة زمنية سبقت الحقبة التي كنت فيها عاكفاً على كتابة مخطوطة هذه التأملات، ففي إحدى المرات بلغني أن ممثل الأسرى قد استغرد بقرار يخص مجموع الأسرى دون الرجوع إلى ممثلي الفصائل الأخرى والتشاور معهم، أقر أنني استأثرت جداً مما بلغني وأخذت الوسواس تدور في رأسي، والظنون تطحن صدري، فلم أطق صبراً، فأسرعت إليه منفعلاً، فاتحته بالموضوع مباشرة دون أن أنجح في إخفاء غضبي ومواراته عن قسمات وجهي، فكان أول شيء صنعه معي أن تبسم في وجهي واقفاً، والصراحة إنه بهذا التبسم والوقوف لحديثي اعترف أنه قد امتص زهاء نصف غضبي، ثم شرح لي سارداً الذي حدث، فأفنعني تمام الإقناع أن ما وصلني من معلومات كانت خاطئة أو على أقل



تقدير غير دقيقة، فأخذت على نفسي أمرين، الأول: أن أتقن من المعلومات سلفاً أنها دقيقة قبل بلورة أي رأي أو موقف، والثاني: أن أكبح غضبي في أحداث شبيهة، وأن يكون الرفق واللين استهلالي حتى وأنا غاضب.

لكن للأسف عندما تكررت الحادثة كررت نفس ردودي الرديئة سالفة الذكر، وكرر هو نفس سلوكه الحفيف والنيه فعدت أجر أذيال خييتي، وأعض على أصابع الندم مستصغراً ذاتي، وآليت على نفسي هذه المرة أشد الإيلاء ألا أعود لمثلها أبداً.

وفعلاً بعد أن حدث نفس الشيء، لكن مع ممثل للأمرى غير الأول، بعد أن تم نقله تعسفاً من قبل إدارة السجن إلى سجن آخر، وجدت ذاتي قد بدأت أستقيم مع ما قطعته على نفسي قبل، فحمدت الله ﷻ على توفيقه في انتصاري وعلى الشعور الجميل الذي أحدثه الرفق في داخلي.

فهذا التوازن إذاً ما بين الحزم والرفق في الحالة التنظيمية العادلة يستهل دوماً بالرفق في الأمور كلها، استرشاداً بالحديث القدسي الذي رواه ﷺ: «رحمتي سبقت غضبي» [أخرجه البخاري]، والحديث الذي قال فيه ﷺ: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله» [أخرجه البخاري]، يساهم في إنشاء التوازن السحري في الحياة التنظيمية الذي يشكل المساحة الواسعة للتألق ويوفر لكل عضو نشاط الرافعة والمنصة؛ ليعرض فيها بلا حرج وبحرية حافزة ما يستبطن من مواهب وطاقات هاجعة أو مستقرة.

فإن أفضل تجمع تنظيمي وأرقاه هو الذي تتوفر في نطاقه الفرص والشروط الذاتية لتنامي تقدير الذات لدى العضو، وتتوفر فيه المناخات



المشجعة والمحفزة على تحقيق الذات، عندها سيقطف الكل التنظيمي أفرادًا وجماعة ثمار الحرية وتحقيق الذات بتراكم الإبداعات والنجاحات.

ولو عدنا إلى الرحمة والرفق فالإنسان ما أن يبلغ درجة وعيه لكرامته تمام الوعي فإنه لا يقف عند حد حرصه الشديد في صون كرامته على شقيها، الأول: صون لباب كرامته من موارد الإهانة ورفض القمع والاستبداد، والثاني: صون وعيه لكرامته عبر التحلي بما يحفظ مكانته لخليفة مختار بالتخلق والتلبس بمعاني سورة الفاتحة، وإنما يتعدها إلى صون وحماية كرامة الإنسان (لباب كرامته) أيًا كان هذا الإنسان؛ لفرط حساسيته حيال كرامة الآخرين وحرصه عليها؛ إذ إنه حين ينظر إلى كرامة الآخرين على أنها جزء لا يتجزأ من كرامته يرى فيها مقتضىً طبيعيًا لوعيه لكرامته فضلاً عن تضامن لباب كرامته هو مع لباب كرامة الآخرين من غير استثناء.

ولا ينتظر من الوعي لكرامته الذي بلغ أعلى درجات الإنسانية ألا يتعامل بالرحمة والرفق مع الآخرين؛ لأن التعامل بالرحمة والرفق نابع من إحساس صادق وحقيقي تجاه كرامة الآخر، إحساس يولده الأصل البشري للناس كافة؛ ولأن في التعامل بالرحمة والرفق مع الآخر صون للباب كرامة الإنسان، والتي هي هبة الله ﷻ لنبيه آدم، فلا اعتداء عليها اعتداء على الله ﷻ واحترامها وصونها عبادة وطاعة له ﷻ؛ لذا فإنك ترى الوعي لكرامته شديد الحرص واليقظة على التعامل بالرحمة والرفق ابتداء مع الآخر، وذلك لصون كرامته ولربما يستحق العقوبة أحدهم، فإنه يعاقب على ذنبه مع حفظ لباب كرامته من أي إهانة أو انتقاص.



فالظالم الذي اعتدى على الآخرين يستحق العقوبة شرعاً وعقلاً، فلماذا وصف المولى ﷺ عملية عقابه والأخذ على يده عدواناً؟ لقوله تعالى: ﴿فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 193] أظن أن العقوبة النازلة فيه وهو يستحقها، في ماهيتها اعتداء على لباب كرامته، فلو افترضنا أن شيئاً طارئاً استثنائياً وتناسب نوعاً مع طبيعة ظلمه وفيه نوع من التذكير للحاكم ألا ينسى أو يتناسى لباب كرامة المذنب فيبقى حافظاً وحامياً لهذا اللباب حتى في حال إنزال العقوبة فيه، ولنفترض أن عقوبة أحد المذنبين أو الظالمين كان السجن فهذا لا يعني البتة إباحة إهانته بأي طريقة كانت أو تعذيبه؛ بل ينفذ عقوبة السجن مع شديد الحرص على حفظ كرامته وحمايتها.

«مالك يوم الدين» والمراقبة والنقد:

100

ما إن تنتهي الصفوة من قراءتها بعقلية الخليفة المختار حتى يحضر في ذهنها: المساءلة والحساب، العقاب والثواب، الجنة والنار، النشر والحشر، والأهم ملاقاته ﷺ بوجوه ناضرة أو باسرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (٢٣) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرٌ﴾ [القيامة: 22 - 24].

فهي لا تمر عليها «مالك يوم الدين» مرور عابر السبيل أو الزائر الضريع بل ترابط عندها برابطة المتذكر المقيم أو الباحث عن السبيل، فهي تستمد من هذه الأفكار والصور التي تمر على ذهنها معاني عملية وملهمة لها في كل شأن من شؤون حياتها الخاصة والعامة كالمراقبة والنقد والمراجعة والتقييم والتقويم، وكنتيجة لها تتجمد، بل تسعى دوماً إلى تحسين أدائها



وتطوير أدواتها لتحصد الأصلح والأفضل في كل شيء وعلى نحو مطرد في عملها وفي حياتها وفي حياة الناس وفي خاطرهم ومستقبلهم وفي دنياهم وآخرتهم.

إذ إن الصفوة المؤمنة الواعية الداعية تستلهم هذه المعاني جميعها من الآية الكريمة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7] إنها لترى فيها دعوة صريحة وفلسفة بليغة للحياة، وفي ضرورة التوجيه الدائم للبوصلة صوب التطوير والتحسين في إدارة الحياة ومواردها في صغير شؤونها وكبيرها في الأمور الخاصة والأمور العامة حتى نعزز النزعة نحو التطوير والتحسين كجزء من شخصيتهم وملكتها من ملكاتها.

فإنهم إن أخفقوا في محاولتهم الأولى للتطوير والتحسين فلن يكلوا ولن يملوا في مباشرة المحاولة الثانية والثالثة حتى وإن نجحوا وأدركوا هدفهم الأعلى من التطوير والتحسين فإنها ستشكل لهم المنصة الجاهزة لمزيد من محاولات التطوير والتحسين والتطلع دومًا نحو الأعلى والأحسن، وذلك حتى يكونوا حقًا الأحسن والأقدر في أهليتهم وجدارتهم في عمارة الأرض والاستخلاف فيها.

ولأنهم يعلمون أن الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ﷻ لا يراقب جوارحهم وأعمالهم فحسب؛ وإنما أيضًا يراقب قلوبهم وضائرتهم فإنهم إن كانوا يكدون ويثابرون على تحسين أدائهم وأدواتهم فإنهم يكدون ويثابرون في كل لحظة من لحظات سيرورتهم على تحسين سرائرهم وضائرتهم من كل ما سوى الله ﷻ ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً



وَلَا شُكُورًا ﴿[الإنسان: 9]﴾، وأقصد هنا الإخلاص، والإخلاص بوابة قبول الأعمال وعلامة نجاح الاستثمار في الآخرة، فالعمل الذي يُقبل هو كما قال الأولون أخلصه وأصوبه.

في إحدى المرات وأنا أسير مشيًا في ساحة الزهة (الفورة) أحد الأخوة الأسرى الصوفيين عرّج بي شارحًا فلسفة الإخلاص، ومما قال لي: «إن الإخلاص لله يذهب الآفات».

فاستزدته شرحًا فقال: «الآفات التي تبطل العمل وتجبطه، مثل: الغرور والعجب والكبر»، ثم استرسل معي في التوغل دون توقف؛ إذ إن الصوفيين -على ما يبدو- يستمتعون بالحديث عما قد شغف قلوبهم وسيطر على عقولهم ولطالما كنت أستمع إليهم بإنصات بالغ لشعوري بأهمية تذكيري بهذه المعاني الجميلة بين فينه وأخرى ولحاجتي الماسة لها.

ثم انتقل بي ذهني وهو لا يزال يحدثني إلى نشاطنا وأعمالنا ومشاريعنا، وقلت في نفسي: وكذلك لا ينبغي لأي شخص كان أن تكون له قضية فحسب، أو عدد من القضايا، بل يجب عليه أن يخلص لقضيته أيضًا أتم الإخلاص حتى لا يعتري عمله وسلوكه الآفات المحبطة للعمل والمؤدية للفشل.

إذًا أمامنا مسألتان، الأولى القضية، والثانية الإخلاص للقضية، أما بالنسبة للقضية فإن ثمة أهمية عظيمة لأن يكون للإنسان قضية مهما كانت قريبة أو بعيدة المدى خاصة أو عامة في أي مجال كانت على مستوى الأسرة أو العمل أو العلم أو الحرب؛ لأن وجود قضية لإنسان سبب لأن يندفع لتجنيب طاقاته وموارده ومهاراته، وتلك التي لدى الذين له تأثير عليهم،



ويوظفها جميعها لتحقيق غايات قضيته فهو أيضًا يتمرن أثناءها كيف ينظم الموارد والطاقات وكيف يستنهض المواهب والمهارات في محيطه، ومحيط تأثيره لأجل الوصول بالقضية إلى نهايتها الناجمة، فهو في حالة كد واجتهاد على نحو متواصل، وينتقل من تحقيق قضية إلى أخرى فلا شيء يسرق اهتمامه وانتباهه وأولوياته سوى القضية التي هو بصدد اجتراح النجاح فيها، متوثبًا للقضية التي تليها دون الإجحاف بحقوق من له حق عليه بالرعاية والحماية.

فهو دومًا منهمك مثابر، وما إن ينجز غايات قضيته الأولى حتى تغمره سعادة تحقيق الذات وإثبات الذات فيتعاظم عنده تقدير الذات، الذي هو في منتهى الأهمية لإدارة التحدي والمواجهة عنده مع الصعاب والنوازل لا سيما في ظروف احتلال أو في ظروف قمع وعنصرية وقهر من السلطات.

فيغدو في صلابة عوده وجده واجتهاده وفي مراكمة نجاحاته قدوة عملية حسنة لغيره من الناس، وذا ثقة عالية بذاته وبقدراته، ويتجه منعطفًا شطر القضية الثانية عاكفًا منهكًا على حلها ومعالجتها.

وأما بالنسبة للإخلاص فإنه مهم في قضيتك الخاصة التي يعود النفع فيها عليك وعلى خاصتك، لكن الأشد أهمية هو الإخلاص في القضايا العامة حيث النفع منها يعود عليك وعلى الآخرين من أبناء مجتمعك؛ لأن إخلاصك في عملك وصدقك في كدك وكدحك لأجل قضايا الناس يحبب الناس فيك ويجعلهم يقبلون عليك وعليها بود لاف،



والتفاف حولك، ينصرونك ويمنونك عند الضرورة دون أن تتوخى منهم ذلك إلى جانب إلحاحهم عليك لضم طاقاتهم إلى طاقاتك وجهودهم إلى جهودك، مدفوعين باقتناعهم بصدق تعبك الذي يغسل عرقه عدم الشك بالإخلاص وتفانيك لأجلهم ولأجل قضاياهم.

والإخلاص في قضية ما يعني عدم السعي أو البحث عن حظوظ نفسك فيها كالمجد والشهرة أو الواجهة والسلطة أو المال والقوة أو الرياء أو المجاملة أو أي مصلحة تعود عليك بالمنفعة المادية أو المعنوية.

حينها لن تنتظر الشكر أو المكافأة من أحد، ولن تندم أو يضيق صدرك لغيابها على أحد؛ إذ عيون قلبك تبقى تتطلع إلى أعلى، إلى فيض من يعلم السر وأخفى ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 197] وسيستأوى عندك حينئذ الجميع بتحكيم موازينك ومعاييرك العادلة كتقديم الأشد حاجة على المحتاج والضعيف على القوي والفقير على الغني بغض النظر عن درجة التزامه؛ لأنك تنظر إليهم عباد الله، وهم يقيمون في أرض الله، وأنت مستخلف فيها من الله ﷻ فمستأمن إذاً على حاجاتهم وأوجاعهم وآمالهم.

هذا هو الشعور الذي يملؤك كلك وتفيض به جوانبك وحواسك حين تباشر النهوض والعمل بقضيتك بصدق وإخلاص، الإخلاص الذي يمدك بقوة لا تنضب عن الاستمرار والمثابرة ويحصنك من أن يرهقك تعب أو ينال منك سأم أو ملل إذ يحذوك دوماً التفاؤل والأمل بأنك متواصل بتواصل الكفاح والكد.



وما سأقول الآن قد شاهدته بناظري وسمعته بأذني حيث حدث في غرفتي في سجن شطة في بدايات الألفية الثالثة؛ إذ كان أسير من سكان غرفتي أظن وأحسبه مخلصاً ومثابراً للقضية التي يعمل لها مجداً ويجهد في دراسته لنيل شهادة اللقب الثاني (الماجستير) في الجامعة المفتوحة في «تل أبيب»، وقد أثار استغراب واستهجان الكثير من الأسرى عندما كان يعود من زيارة الأهل التي كانت تجري مرة واحدة كل أسبوعين لمدة ثلاث أرباع الساعة، فما إن يصل غرفته حتى ينكب عاكفاً على الفور لمواصلة القراءة والكتابة وكأنه لم يكن في زيارة.

وأقول: لماذا كانوا يستهجنون ذلك؟ لأنه دأبت عادة الأسرى ولا سيما المتزوجون منهم على الانكباب على فراشهم حين عودتهم من زيارتهم يفكرون ويعالجون المشاعر التي خلفتها الزيارة الملتهبة حيناً وشوقاً، والمغمسة بالكثير من اللوعات على أطفالهم وزوجاتهم.

وكما وصف أحد الأسرى حال الأسير المتزوج العائد من زيارة أهله كحال الذي تعرض لصدام بين سيارتين وخرج منها مع رضوض وكدمات بحاجة إلى علاج، وهكذا الأسير فإنه يحتاج إلى ساعات لكي يعالج رضوض الزيارة وكدماتها، وبلغه الأسرى نقول: إنه يحمض الفيلم؛ أي يراجع ويقلب ما حدث معه بالزيارة، ويعمل على استعادة توازنه.

وكان هذا الأسير المجتهد الذي لا يأبه للزيارة كثيراً وإن كان لا ينقصها حقها، لا يرى بالتعليم الأكاديمي هدفاً بحد ذاته وإنما وسيلة مهمة لخدمة القضية الكبرى التي نذر نفسه وطاقاته لها، وكان لا يلتفت يميناً ولا شمالاً



وإنما كان ميمماً وجهه إلى مرضات الله ﷻ متصلاً به بقلبه إلا أنه كان يستمد غذاءه الذي يحفظ له طاقته وزيت قنذيله.

ولم أكن أسمع من أسير آخر ولا يقل عنه ثقافة ولربما يفوقه بها، وكان مثله يدرس لنيل اللقب الثاني؛ إلا تفوهات يعبر بها عن الملل الذي كان يعتريه من القراءة، وكان يعرب عن استغرابه من جهد ذاك الأسير في مواصلته القراءة والدراسة حتى بعيد الزيارة.

وأرجح أن هذا الأسير من خلال فهمي له كان يسعى بدراسته لخدمة أموره الشخصية أكثر منها لخدمة قضية عامة كبرى، وإن اشترك في خدمة قضية عامة فللمجد والشهرة والوجاهة مثلاً؛ لذا كنت أستشعر فيه نفاد زيت قنذيله وانقطاع نفسه، وكنت ألحظ فيه أيضاً حساسيته وضيقه؛ إذ لم يكن هو يطلب الاهتمام والتركيز من الآخرين، وكان ثمة آفات أخرى تشوب شخصيته وتعتري سلوكه.

وهذا يعيدنا إلى الآفات التي ترافق وتواكب غياب الإخلاص في القضية وصدق التفاني في سبيلها كما حدثني عنها الأسير الصوفي.

غالبية البشر مشغوفون بطبيعتهم ويميلون ميلاً عظيماً للمتفاني، والناذر نفسه لقضيته، ويسارعون منجذبين للالتفاف حوله، وكأنه تنبعث منه إشعاعات تستهوي أفئدة الناس وتأسر قلوبهم، وغالبية الناس صادقة وتحب الصادقين وتستشعر الصادق من المدعي أو المرائي.

أما الخبثاء من الناس فسيتهمون المتفاني والصادق المحبوب بأنه يجد



ويسعى خلف المجد والشهرة وجمع المال أو السلطة، سיתهمونه بكل شيء إلا الصدق والإخلاص؛ إذ إن «كل وعاء بما فيه ينضح» ولا يتوقع منهم غير ذلك.

ومع ذلك فالصفوة لا تقف في مراقبة سرائرها عند الإخلاص للقضية والصدق في العمل؛ وإنما تتجاوزها إلى مراجعة العمل ذاته بعد إنجازه وظهور نتائجه سواء نجح العمل أم فشل؛ إذ إنها تقوم بتقييمه وتحليله، ومن ثم تستنتج العبر والدروس وتوظفها في الإعداد والتخطيط للعمل التالي.

وثقافة مراجعة العمل بعد اكتسابه وإنجازه استلهمتها الصفوة واكتسبتها من أنواع الذكر التي تلهج بها السنة المؤمنين، وألسنة الكثير من الناس، فمراجعة العمل بعد إنجازه وتقييمه قد استوحته من ذكر الاستغفار فالإنسان عندما يستغفر الله ﷻ فإنه قد راجع عمله وأيقن أنه قد أخطأ واقترب إثماً فيستغفر ويتوب إلى الله ﷻ نادماً على ما فعل وعازماً على عدم العودة للذنوب.

وهكذا هو يفعل عند إنجاز الفعل ووقوع نتائجه فإنه يخضع ما فعله للنقد والمراجعة والتحليل، فيضع أصابعه على مواطن القوة والصحة وعلى مواطن الضعف والخطأ فيقوي ويطور الأولى ويصحح بالتجاوز أو بالتصويب الثانية، ثم يضع نتائج نقده ومراجعته في خدمة الإعداد الأكمل والتخطيط الأفضل إلى جانب تخزينها ضمن ثروة تجاربه وخبراته حتى تغدو عمليات النقد والمراجعة والتخزين جزءاً من حياته العملية الشخصية



أو العامة ما يضمن تحسين وتطوير الأدوات والإتقان في كل شيء، كل شيء بعد استثناء لقوله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» [رواه البيهقي]، وقوله ﷺ: «إن الله يحب أن يكتب الإنسان على كل شيء» [رواه مسلم]، والتركيز هنا على كلمتي «كل شيء» حتى لا يخرج من الإحسان والإتقان أي عمل مهما صغر أو كبر حتى تشمل حياته كلها.

ينبغي ألا ننسى أن ثقافة المراجعة التي اكتسبتها الصفوة تأتي من وعيها لكرامتها، ومن اعتقادها السابق بكرامة الإنسان - كل إنسان - على الله ﷻ.

وهذا الاعتقاد كما قلنا سابقاً إذا ما تشعب به الإنسان، فإنه سيرفع من اعتباره في نظر نفسه، ويشير في ضميره الحياء من التدني عن المرتبة التي رفعه الله ﷻ إليها، فاختره ﷻ كخليفته في الأرض من دون باقي خلقه.

108

ولكي تبقى الصفوة خليفة بهذا الاختيار، حريصة بهذا التكريم الجليل تحرص أشد الحرص في إطار دأبها في نقد ذاتها على تصفية رأسها من المعتقدات والتصورات الفاسدة عن الإنسان والكون والحياة، ومن الأفكار السلبية التي قد تتسلل إليها في حالة انفعال، ومن العادات والخرافات التي كانت قد ورثتها من عصور انحطاط المجتمعات العربية والإسلامية أو اكتسبتها هي في أيام جهلها، ومن أحكام مسبقة عن هذا الشخص أو عن تلك الجهة، وإنك لتجدها غير مسارعة في بلورة فكرة أو تصور قطعي عنها؛ بسبب إشاعة تناهت إليها أو من معلومة قد وصلتها قبل أن تثبت وتبين من صدق هذه المعلومة أو تلك الإشاعة بطريقة علمية تحليلية أمنية.

وكم أنا شخصياً كنت قد وقعت رديحاً من الزمن ضحية تأثيرات



المعلومة غير الدقيقة، ولا ألوم الشخص الذي بلّغني، بل ألوم نفسي لأنني للأسف لم أكن أخضع ما يصلني إلى عملية تمحيص وتحقيق حتى أتبين صدق المعلومة من كذبها، وأكثر من مرة صدرت عني تصرفات متسرعة خرقاء، عضضت بعدها أصابع الندم وفي كل مرة لم أكن أغفر فيها لنفسي، حتى بت أظن أن عملية التبين والتثبت أضحت عندي -أمل ذلك- جزءاً من شخصيتي بعد أن دفعت ثمنها غالياً، ومرنت عليها ذاتي مراراً.

وكثيرون اليوم في مجتمعاتنا العربية من يكونون فريسة سهلة للإشاعة المغرضة أو للمعلومة غير الدقيقة، وكثيرة هي القصص الحقيقية التي وقعت فيها كثيرات من فتياتنا العربيات ضحايا عجلة أبيها أو أخيها من مجرد معلومة وصلته عنها يسيء إليها ويتهمها، أو لشبهة أو لريبة خالجت، فضلاً عن دور عيون الناس ونظراتهم، والشياطين ونفخاتهم حتى لم يعد يرى أخته -المسكينة- إلا جالبة العار والمجربة الكبيرة، فتسود الدنيا بوجهه ويتعطل عقله فيتحول من أخ حنون على أخته إلى وحش كاسر لا يرى إلا الدم المسفوك واللحم المنهوش، دم أخته أو ابنته، وما إن يصحو من سكرته وهسترته حتى يجد نفسه بالسجن ملقى على فراش الذل يحمل على جبينه عار القتل وخزي التسرع والتعجل حيث اتضح لهم فيما بعد أن الأمر ليس كما وصلهم، هذا إذا كان ثمة أصل له، وبعضهم وفق الحقيقة التي تبينت لهم فيما بعد، كان يكفي منهم نصيحة أو ترشيد لها برفق وحنان وليس التهشيم والمخلب والسكين والناب.

وبالسجن قد التقيت بمثل هذه القصص، وأعلم أنهم الآن يكون دمًا ويأكلون ندمًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا يحسبن أحد أن هذا الكلام يحمل بين سطوره دعوة لإباحة لعلاقات جنسية تسبق الزواج، بل



هي دعوى لأن يفرق الإنسان ما بين علاقة حب صادقة شريفة بين شاب وفتاة؛ إذ لا سلطان لأحد على القلب عندما يقع هذا القلب بحب الجنس الآخر، وما بين المختلة وهي العلاقة السرية، الهدف منها إشباع الرغبات النفسية لدي الطرفين بغير طرقها الشرعية.

وقد تعرفت في السجن على شاب أسير قال لي في معرض حديثنا حول قضايانا الاجتماعية إن أخته قد تحابت مع شاب، وكانت تتواصل معه عبر الهاتف النقال حيث أمضيا ردحاً من الزمن وهما على هذا الحال، ثم توجعا علاقتهما النبيلة بالزواج وهما الآن يعيشان حياة هنيئة سعيدة.

وفي ذات الوقت ثمة أسيران أخوان زُج بهما في السجن؛ بسبب جريمة قتلها أختها لمجرد أن وجدا في هاتفها النقال مكالمة لها مع أحد الشباب، ربما وقعا في حب متبادل، ولكنها نفخات الشيطان اللعينة والتقاليد الذميمة، والجهل المطبق والأفق الضيق، فلم العجب إذا ما غاب وتلاشى العقل والمنطق وحل محلها الناب والمخلب والسكين؟!

لذا تبرز هنا الأهمية البالغة وربما المصيرية لعملية التربية لكلا الجنسين منذ الطفولة، وأولى هذه التربية القدوة الحسنة والمثل الشخصي الشريف والنبيل لكلا الوالدين، ثم عملية غرس الثقة بالنفس وتعزيز تقدير الذات لديهما، وتنبيه الفتاة إلى أن في كل رجل يقبع ذئب، وقلما نجد رجلاً يجمع ذئبه، ولا سيما إذا لاحظ منها ذاتاً ضعيفة ونفسية مهزوزة وحتى لو رأى فيها قوة وثقة، فبالكاد تسلم منه لا سيما إذا تسنى له الاختلاء بها في مكتب أو حانوت أو صالون... الخ



وربما الذئب الذي بالرجل يجعله يتظاهر بالنباله والصدق والحب الحقيقي المزيف، وذلك لريثما يشبع وطره منها، ثم يلقيها بلا تعذيب ضمير أو حتى من غير أن يرمي نظره إلى الوراء؛ كيلا تستدر عطفه ليحمل أشلاءها إلى أقرب مستشفى، ولربما يمارس معها بعد ابتزاز الفضيحة لإشباع نزواته وشهواته دون أن يطرف له جفن.

ولقد التقيت مع أسير شاب حدثني بعد أن استغفر وندم وتاب، كيف كان يعري الفتيات بالإنترنت، بمجرد بعض الكلمات المعسولة والمجملّة بكذبة أو كذبتين، لكنه حدثني عن فتاة مطلقة جميلة تعرف عليها عبر شبكة الإنترنت، وكيف أنها تمنعت عليه، وكاد يستبد به اليأس غير أن شيطانه نفخ فيه أن يقسم لها أغلظ الأيمان بأنه يحبها بحق، وأنه عازم على الزواج منها، وبعد أن صدقت المسكينة الضحية كذبه وخدعته تعرت له كما يشتهي ثم نسيها خلفه جريحه كالأخريات، وهي أكثر ضحاياها التي لا تزال قصتها تقض مضجعه إلى الآن وتؤنب ضميره، هذا ليس نسيجاً خيالياً، بل هو اعتراف جريء وصريح من شاب أراد باعترافه تنقيه ضميره والتخفيف من آلامه طمعاً بالتكفير عن ذنوبه وآثامه.

ودعوة بعض الجمعيات النسائية بتحرير المرأة بمعناه الغربي (حرية المرأة على جسدها) هو عملياً دعوة -بمجتمعاتنا العربية- للقتل؛ إذ إن مجتمعاتنا بتقاليدها وإرثها ومفاهيمها لا تستوجب هكذا حرية، فالرجل عندنا تبعاً لهذه التقاليد الجائرة (يعمل السبعة وذمتها) دون الإشارة إليه بشيء من أصابع الاتهام والريبة أو نبذه أو حتى تعنيفه، وكأن الأمر مباح للرجال، بينما المرأة ومن فور مساورة الشك للمجتمع حولها حتى يتقرر



مصيرها وتضطجحها جراء قليل الشك غيمة سوداء تلاحقها أينما حلت، هذا إذا لم تكن قد سبق إلى رقبتهام مخلص الجهل والظلم، ثم قلما تجد أحداً من الرجال من يسارع إلى طلب يدها وكأن الأمر محرم عليها وحدها ومباح للرجال، لذا ينبغي على الجمعيات النسائية أن ترحم النساء ولا توقع بهن وسط نيران التناقضات؛ إذ إن ثمة تناقضاً واضطراباً سيحدث في هذه العملية ما بين قيمة وافدة وقيمة محلية وما بين مفهوم وارد ومفهوم محلي، فإن جلب قيم ومسلكتيات غريبة عن مجتمعنا سيؤدي - لا محالة - إلى تناثر ما بين القيم، ثم انفجارات محتومة ستكون النساء أول ضحاياها، كالجسم الذي يقبل بشكل طبيعي نمو عضو داخلي فيه كالكد أو الكلية، لكن نفس الجسم سيرفض زراعة عضو غريب فيه إن لم يكن قد نما من داخله، أو إن لم يكن ملائماً له وحتى لو لاءمه سيعقب الزراعة أدوية ملازمة يتعاطاها الجسم طوال عمره لكي يبقى بقوة الأدوية على قيد الحياة، لكنه حتى لو بقي الجسم على قيد الحياة فإنه سيبدو عليه الإرهاق والتشوه واللا طبيعية الكاملة لحياته؛ لذا ينبغي أن ننطلق من الداخل حين التطلع للقيمة والتطور؛ إذ إن مبادئ الإسلام وقيمه الخالدة منحت ما يحتاجه الرجل والمرأة من الحرية ما يؤمن لهما أن ينهضا بدورهما الاجتماعي والحضاري والإنساني على أتم وجه، مع ضمان حفظ كرامتهما مترفعة عن مستوى البهيمة بلا نقصان أو طغيان وبلا ترفع عن الانتفاع مما أنتجته الحضارات الإنسانية الأخرى.

وإذا ما شاب حرية المرأة وحقوقها (ونخص هنا المرأة؛ لأن جُل الظلم إن لم يكن كله يقع عليها دون الرجل) أي تضيق أو تقييد أو ظلم



وعسف، فلنبحث عن السبب بالتقاليد والعادات المتوارثة التي تشبع نزوات الرجل، والتي ضيقت ما وسعه الإسلام وقيدت ما أباحته الشريعة، ولتكن الصيدلية الإسلامية هي موئلنا وموئل الجمعيات النسائية المناضلة لاسترداد كرامة المرأة الإنسانية، وعبر اجتراح الوصفة المناسبة التي تعيد لها احترامها ومكانتها وهي رفيعة في الإسلام وخالدة بخلود القرآن الذي به سميت سورة كاملة باسم النساء لعلو شأنها ولتخليد إنصافها إلى يوم الدين.

ولقد كانت المرأة إبان حقبة الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم تجاهد وتعمل وتعلم وتعلم، وتسبق كثيرًا من الرجال في كثير من الميادين، وما ينسحب على المرأة ينسحب على الرجل؛ إذ إن الحرام حرام على كلا الجنسين، فلا يجوز للرجل أن يشبع نزواته على حساب كرامة المرأة، ولا يحق للمرأة أن تشبع نزواتها على حساب كرامة الرجل وكرامتها هي، فالإسلام برصانته وشموليته وسماحته هو الذي يحكم سلوك الجنسين وليس النزوات ولا الأهواء أو الشهوات، فلا يقترن الرجل بقوته وتسامح تقاليد مجتمعه البالية مع سلوكه مع المرأة بشعارات وعناوين براقية تكون للأسف هي أول من يدفع ثمنها بحياتها، ومن ثم المجتمع برمته هو من سيدفع أثمان انحرافات الجنسين الذكر والأنثى.

ربما أطلت في هذه النقطة، ولكنها قضية خليقة بهذه الإطالة، جديرة بإعمال التفكير المطول فيها؛ لأنها تطال نسيجنا المجتمعي وتماسكه، وتطال بالأخص مبادئ العدل والإنصاف ورفع الظلم والاضطهاد.



وإذا عدنا إلى معنى المراقبة والنقد الذي قد استلهمته الصفوة من «مالك يوم الدين» فإن مراقبتها لذاتها لتصل إلى مراقبة مشاعرها وعواطفها وتكد وتجد إلى تنظيفها وغسلها من مشاعر الحقد والكراهية ونزعة المثابرة والاهتمام وكل المشاعر السليمة من حسد وغرور وعجب وكبر وغيرها التي لو تركت من غير تنظيف ولا تهذيب لكانت كفيلة بتلويث الروح وتسميمها، ولحصل إنكار محقق لوعي الصفوة لكرامتها، وإلا لما كانت الصفوة منشغلة ومنهمكة بمجاهدة عيوبها وإكمال نقصانها وتهذيب نزعاتها.

فربما تواجه الصفوة سلوكاً من أحد يغيظها ويستفزها إذ تكرهه ولا يعجبها؛ إذ إنها كباقي الناس تنخرط بينهم وتتعامل معهم وترتبط مع الجميع بعلاقات متنوعة ومتشابهة، وقد يكون هذا السلوك فيه اعتداء عليها أو تطاول على غيرها أو على حق من حقوق الله ﷻ فيصعد الدم إلى الرأس ويتنفش الشيطان بنفخاته في القلب فيهيجه إلى التأديب أو الرد العنيف أو تؤزها أژا إلى الثأر والانتقام، لكنها تعلم أتم العلم أنه ينبغي عليها في مثل هذه الحالات كبح جماح الشيطان ونفحاته وما تهوى الأنفس، وتحرص لأن تكون معالجتها حينئذ حصيفة وحكيمة، إذا لم تكن ثمة مظالم، أما إن كانت هناك مظالم فيجب أن تكون معالجتها حازمة عادلة بحيث تعمل على رد الحقوق إلى أهلها إذا كان الأمر يقع في إطار مسؤوليتها وصلاحياتها أو في نطاق قدراتها وإمكاناتها أو تختار العفو إن كان التطاول يخصها، أما إن كان موجهاً صوب الآخرين فالعدل والإنصاف إلا إذا شأؤوا أن يختاروا العفو عن طيب خاطر.



وفي جميع الأحوال تحرص الصفوة ألا تحمل مشاعرها أي أثر لحقد أو غل أو ضغينة على أحد؛ إذ كما قال الشاعر:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

وتنكفى إلى داخلها تكدح في غسل وتنظيف المشاعر من أي شحنات سلبية لربما خلفتها تلك المسلكيات والتصرفات وعلق بالقلب منها بعض سهامها أو سموها، وكذلك في إطار مراقبتها لمشاعرها ترفض أن تسمع الغيبة أو كل ما يشحن الصدر على الآخرين؛ لأنها تريد أن تبقى مشاعرها سليمة ونظيفة تجاه الجميع؛ إذ ما يصلك من سلبيات عن الآخرين سواء أكانت حقيقية أم لا إلا أن هذه السلبيات تترك سموًا ودخانًا يقبض الصدر ويكدر الروح مما قد يؤدي إلى توهين همتك وتقليل حلمك فتضعف عندك إرادة العطاء وفضيلتا العفو والتسامح.

لذلك نستطيع القول إنه لكي تحافظ الصفوة على سلوك رشيد سديد ومحجب تجاهد على مدار اللحظة في تنظيف رأسها ومشاعرها من رذائل الأفكار والخواطر، ومن آفات الحقد والحسد والكراهية والانتقام حتى يتسنى لها أن تعبد الله ﷻ بقلب سليم.

وأنها تجهد وتكدح لأن تكون كما نقول مجازًا: «عند حسن ظن ربه بها»؛ إذ إنها تستحي أن تكون خليفة الله ﷻ على الأرض وقلبها ورأسها غير نظيفين، وهذا من أهم مقتضيات وعيها لكرامتها لتبقى في داخلها مقتنعة تمام الإقناع أنها لا تزال جديرة بالاستخلاف.



«إياك نعبد» وعبادة العمل والتطوع:

إن الله ﷻ خلقنا في أحسن صورة، ونفخ فينا من روحه فكرمنا تكريمًا، وخلق لنا الحياة الدنيا وسخر لنا ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ علينا نعمه الظاهرة منها والباطنة التي لا تعد ولا تحصى، وعلّمنا تعليمًا وعلّمنا كيف نتعلم فزودنا بكل أدوات ووسائل التعلم والعقل والحواس ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78]، وأسجد لأبينا آدم عليه السلام الملائكة في الملاء الأعلى تكريمًا له ولبنيه من بعده ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]. ليس لأن نخرج من الدنيا مقاطعين لها ومغادرين، ولا ننزوي عاكفين في زاوية قصية من زوايا الأرض نتحنث فيها ونتعبد، نفكر ونتأمل معلنين انسحابنا من الدنيا، ونترك وراءنا ما خلق الله ﷻ لنا ليعبث فيه العابثون، ويفسد فيه المفسدون ويتجبرّ ويطغى فيه الظالمون والمستكبرون.

116

وما كان تحنث رسول الله ﷺ وتأمّله وتفكره في غار حراء إلا حقبة قصيرة من الزمن قبل البعثة كانت كمنصة انطلاق؛ لينهض بعدها ﷺ بتكاليف الخلافة في الأرض إذ بدأها باقتحام مجتمع الناس؛ ليغير عقائدهم وتصوراتهم وشرائعهم وأخلاقهم ما يتفق مع تأسيس نموذج حضاري إنساني للعالمين القائم على العدل والشورى والرحمة والعقل، بخلاف الذين يعلنون انقطاعهم للحنث والتعبد في محراب بيتهم على نحو دائم بدلًا من المؤقت، كمن يدخل بسيارته محطة الوقود للتزود بالبنزين، فيبقى فيها من غير



نية للخروج بتمتعه بأكلات مطعم المحطة وبتمكنه الدائم من رؤية الزوار، فينال الوضع إعجابه واستحسانه وينسى إنما هو انطلق إلى غايات وأهداف أخرى ينبغي عليه إدراكها وتحقيقها، ولأجل تأمين الوصول إليها وتسهيله كان عليه أن يعطف في طريقه بين الفينة والأخرى لمحطة وقود الواحدة بعد الثانية للتزود بالغذاء الذي يحفظ له طاقته بالاستمرارية والاندفاع إلى أن يدرك غاياته ونهاياته المنشودة، لكنه ظن مخطئاً عند المحطة الأولى أن هذه غاية خلقه، وأن هذه هي العبادة الحقّة، وأن هذه المحطة هي المحراب الذي لا ينبغي لأحد الخروج منه البتة، إلا أن تخرج منه روحه إلى بارئها، ويتناسى أن هذه محطة على الطريق، وليست نهاية الطريق، وأنه إذا ما بقي فرحاً بروحانياته ثاوياً على لذاته بالمحطة فإن أحداً غير صالح سيسد محله وينحرف بالطريق، وربما يأخذ معه كثيراً من الناس إلى غايات ومقاصد غير مستقيمة وغير صالحة يستبدلون الفضيلة بالرديلة ويشترون الدنيا بالآخرة.

وإذا ما التفت هؤلاء العباد والنساك الذين بقوا بالمحطة الأولى نحو الطريق، هنيهة سيرون مظاهر المنكر والانحراف والآثام التي خلفها من سدوا محلهم بحرف الطريق عن جادتها ويجر الكثير من الخلق خلفهم، وأنها قد ملأت جوانب الطريق وأزقتها؛ بسبب هروبهم وانسحابهم منها وارتضائهم بالقعود بالمحطة الأولى على الطريق ورغبتهم بلذة الوجد والذكر عن لذة مواصلة التعب والسير في الطريق، وسيلعنون وقتها الدنيا ويتسخطون على عوج الناس وتكالبهم عليها ناسين أو متناسين أنهم بانعزالهم الدائم وليس المؤقت هو من ترك فراغاً ومكاناً لهؤلاء، بالرغم من تقرير الرسول ﷺ الجازم بهذا الشأن الجلل: «المؤمن الذي يخالط الناس



ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» [رواه البخاري]، ومتناسين قوله ﷺ القاطع والحاسم: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 19].

الصفوة بوعيتها لكرامتها بمنأى عن هذه التناقضات والانحرافات التي يقع بها حتماً من يختزلون ويقتصرون مفهوم العبادة على الصلاة والصيام وسائر النسك المفروضة على المؤمن، إلى جانب النوافل والسنن، أي: الذين يفهمون العبادة على أنها المحراب أنت تعبد ربك وتطيعه، يعني عندهم: أنك عاكف في المحراب راکعاً ساجداً، صائماً ذاكراً، وما سوى ذلك فهو ربها لهو أو عبث أو تضييع للوقت من غير طائل.

118

بل تفهم الصفوة العبادة على أنها مجموع كل ما تقوم به وتعمله وتجترحه من فكر ومشاعر وسلوك تؤدي به أمانة استخلاصها في الأرض عن الله ﷻ بعبادتها وإصلاحها وتأمين السعادة للناس كل الناس في الدنيا والآخرة، وذلك بجلب الخير لهم ودفع الضر عنهم ونشر العدل بينهم، إذ يملأها الشعور أنها ما بلغت الذي بلغته في وعيتها لكرامتها إلا لتكون لخير الناس، ولخدمة الناس جميع الناس حتى إذا ما شاهد الناس قدوم أحدهم إلا ويقول جاء الخير أو جاء الفرج، فهم بذلك حققوا بوعيتهم وفعلهم قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، وكأنهم اصطنعوا على عين الله ﷻ اصطناعاً لأجل منافع ومصالح الناس، وما اعتكافهم في المحراب يتعبدون ويتحشون بين الفينة والأخرى إلا برهة شاحنة تشحنهم وتمدهم بالطاقة التي تعينهم على مواصلة العطاء والسير



والنهوض بتكاليف الخلافة ومهام الإعمار ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153]، لو أنهم يعلمون علم اليقين أن أي عمل يقوم به أحدهم فيه خير وصلاح له أو لأسرته أو لمجتمعه أو لأي أحد من الناس، هو من أفضل العبادات إلى الله تعالى، وهو سيكون من أحب الناس إليه تعالى لقوله ﷺ: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس» [رواه أحمد] لما توقف لحظة عن طلب الخير وفعله.

واستطرداً للحديث السابق فالرسول ﷺ قال: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» [رواه مسلم]، وكذلك: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته» [رواه مسلم والبخاري].

فلو أن الناس كلهم عملوا وتصرفوا على هدي هذه الأحاديث الشريفة، وتوجيهاتها لأصبح الناس كلهم كأمة النمل من حيث العمل والتكامل والمحبة.

لو أنهم فقط أيقنوا أن عملهم لأجل غيرهم عبادة وطاعة لله ﷻ ومن أرقى العبادات والقربات، وهذا قد يحصل إذا ما جعلوا شعارهم: «عملك محرابك» فإينما كان عملك فثم محرابك وعبادتك، على أن يكون الله ﷻ هو وراء القصد، وليس للشهرة والرياء أو للمجد والجاه.

فحين القيام بعمل أيًا كان هذا العمل، كأن تعزل الأذى عن الطريق أو تعلم جاهلاً، أو توفق وتجمع بين شاب وشابة للزواج، أو أن تغير نظرة الناس السلبية عن المطلقات وأن من حقهن الزواج وأن يسعين هن أو أحد معارفهن بالتوفيق لزوجهن، كما هو حق الرجل المطلق، وحقهن لا يقل



عنه مليمترًا واحدًا، ولتذكر أن أمانا خديجة رضي الله عنها هي من عرضت الزواج على رسول الله ﷺ وهي تكبره بخمسة عشر عامًا، والأمر ذاته ينسحب على الأرامل، أو أن تصلح وتقرب بين متخاصمين، أو أن تقوم بنشاطات اجتماعية مبتكرة لإفشاء المحبة والود بين كل أطراف المجتمع، أو أن تعين معيلاً كثير الأولاد، وليس بالضرورة أن تمده بالمال؛ إذ قد تمده مرة أو مرتين ثم ماذا بعد؟ بل الأفضل أن تجد له مكان عمل أفضل وأوفر، وإذا كنت أنت ذا مال فأنشئ مصنعاً أو متجرًا أو أي مصلحة، ثم وظف بها الأشد حاجة والأشد فاقة، فتكون كمن زودته بصنارة يصطاد بها السمك كل يوم، بدل أن تطعمه أنت سمكة كل يوم.

وهذا قليل من كثير؛ إذ إن أعمال الخير والبر والإحسان متواجدة بوفرة أمانا، تنتظر فقط العاملين الجادين المبادرين الذين يقتنصون فرص الخير، فينقضون عليها انقضااض الظمان على كوب الماء البارد يشربه، ويشرب معه حلاوة إرواء عطشه؛ إذ إن حلاوة عمل الخير ولذته الروحانية لا تقل بل تزيد عن تلك التي يتذوقها المعتزلون في محاريبهم؛ لأن أثر فعل الخير ومفاعيله يتعدى إلى غيرهم، مؤكدين به تجردهم من أنانيتهم، بينما المعتزل في محرابه إنما يبحث عن لذته وسعادته هو، فيما العامل لوجه الله ﷻ لخير الناس ومنفعتهم، إنما يبحث عن سعادة غيره، وسعادته تتحصل من تحقق سعادة الآخرين، متذكراً دومًا الأحاديث الشريفة التي ذكرناها سابقاً.

فأنت في هذه الحالة وأنت متلبس في عمل من أعمال الخير تكون في عبادة من أجل العبادات، وناهضاً بأمانة الخلافة في الأرض عن الله ﷻ فتكون إذا قدره ﷻ في إعانة المحتاج وتنفيس الكربة عن المكروب، والأخذ



بيد المنكوب؛ لأن الله ﷻ لا يحب أن يرى في الأرض فقيرًا وإلى جانبه غني ليس مهتمًا، أو مظلومًا يتضرع، وإلى جانبه قوي متجاهل، أو عالمًا مطلعًا وإلى جانبه جاهل متطلع.

إذ إن المستخلف في الأرض عن الله ﷻ، يستشعر بعميق المسؤولية على هؤلاء جميعًا متذوقًا حلاوة عبادة النهوض بتكاليف هذه المسؤولية، وتأدية هذه الأمانة الكبرى وهذا ما يفسر شدة تشبته وحرصه على تواصل أداء مهامه ورسالته، لكن لربما يصيب الصفوة التعب والنصب، فيتسلل إليهم أو إلى أحدهم العزوف المؤقت عن مواصلة العمل وتكاليف الاستخلاف، فهل هذا يعني توقف العمل ومشاريع الخير والمبادرات؟

لو تأملنا مليا صيغة «إياك نعبد»، لعلمنا إنما قيلت بصيغة الجمع وليس المفرد «إياك أعبد»؛ لتوجيهنا إلى الأهمية البالغة بالعمل الجماعي، وتفضيله على العمل الفردي ولا سيما بالمشاريع والمبادرات التي تحتاج إلى جهد كبير ومدى طويل، والتي من أهم متطلبات إنجازها ونجاحها ضمان الاستمرارية والمثابرة في العمل وبذل الجهد الذي لربما يقصر به الفرد لو قام به بمفرده، لكن أهمية العمل الجماعي المؤسساتي المنضبط بلوائح تنظيمية داخلية ناظمة؛ إذ إن المشروع الخيري الذي يحتاج إلى جهد كبير ومتواصل يقع أعباؤه في إطار العمل الجماعي ليس على شخص واحد؛ وإنما على الجماعة العاملة، فإذا ما تعب أحدهم أو فتر أو استنزف فإن استمرارية العمل والبذل والمثابرة بهما مضمونان إن هو مال إلى الراحة والتوقف المؤقت؛ لأن غيره من الجماعة سيقى ثابري ويواصل العمل لريثما يستعيد المستريح نشاطه وهمته، ثم يلتحق من جديد بقافلة العاملين،



وهذا يسري أيضًا على غيره إن هو مال إلى الراحة أو حتى إن هو خرج كليًا من دائرة العمل والمشروع فإن الاستمرارية مؤمنة للمشروع في ظل العمل الجماعي المنظم، وهنا يتضح لماذا حثنا الدين على تفضيل العمل الجماعي ولزام الجماعة مثل قوله ﷺ «يد الله مع الجماعة» [رواه الترمذي]، وإن الشيطان مع الواحد، وهو مع الاثنين أبعد» [رواه الترمذي]، وكذلك دفعنا إلى تنظيم العمل الجماعي كقوله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فأمرُوا أحدكم» [أخرجه الحاكم]؛ كي تتجنب الجماعة العمل الارتجالي غير المنظم، وتضمن مشاركة الجميع في الجهد والقيادة والاختيار.

إذ في الإطار الجماعي يتسنى لهذه المعاني أن تتفعل وتطبق لا أن تبقى مكدسة في الرؤوس ومخزنة في الكتب إلى جانب مزاولة فعل المصابرة بين الأعضاء، وشد بعضهن من أزر بعض على المواصلة، وعلى مكافحة المثبطات والمعوقات سوية.

122

وثمة أعمال ذات طابع فردي لا تحتاج إلى جهد جماعي، ولا ينتظر من الفرد سوى النهوض بها بمفرده لوجه الله تعالى سواء تعلق هذا العمل بمساعدة أحد أو معاونته أو بالبيئة أو الطبيعة، وهي كثيرة ويومية ويعوزها فقط المسارعة والمبادرة، فلان مقطوع أنقله معي في سيارتي، أو أن أساعد فاقداً لشيء على البحث، أو أن أرافق شيخاً كبيراً أو امرأة مسنة.

«وإياك نستعين» والتضامن الوطني:

كما أن الصفوة تستشعر أن ما تقوم به من تكاليف الخلافة وأمانة الإعمار طاعة وعبادة لله ﷻ فهي كذلك تستشعر شديد حاجتها إلى أن



يمدها الله - سبحانه وتعالى - تبعاً بالطاقة والإرادة والهمة والعزيمة، ولا تطلبها إلا منه ﷻ كي تبقى تعطي وتثابر وتستمر في تعبدتها الاستخلافي في الأرض، وفي طاعتها الله ﷻ بالإصلاح ونشر العدل وتحسينه بين الناس ومع باقي خلق الله تعالى، وبالإعمار المتواصل، وأرقى أصناف الإعمار هو إعمار النفوس بالإيمان ومعاني الخير جميعها.

ومن «وإياك نستعين» تستلهم الصفوة معاني التعاون، الجماعية، التضامن، المشاركة، وحدة الأهداف والتوجيهات، والمشاريع المشتركة التي تجمع وتنفع.

وإن «وإياك نستعين» تبث فينا روح التعاون، والتساند والتقارب، وليس التحاسد والتدابير والتباعد، وإذا ما سرت هذه الروح التعاونية والتساندية بين الناس بالفعل لا بالقول، بالمبادرات لا بالشعارات فإنها ستولد بينهم - لا محالة - الثقة المتبادلة وروح التضامن المجتمعي، والتي هي من أهم مقومات تماسك المجتمع ووحدته، والتي بها يواجه المجتمع ما يقابله من تحديات وتهديدات وبفعالية وصلابة، وبطاقات خلاقة تمنع انكساره أو انهياره.

لا بد أن ثمة خيطاً ناظماً يربط ما بين المصطفين الذين يطلبون العون سوية، لتحقيق منفعة مشتركة، أو لدرء مضرة عامة، وقد يكون هذا الخيط إما فكرة جامعة أو أرضية مشتركة أخرى، والفكرة قد تكون فكرة دينية أو فلسفية أو أيديولوجية، والأوطان هي اليوم التي تجمع الشعوب في داخلها فلكل شعب وطنه الخاص، وفي داخل الوطن الواحد قد نجد عدداً من



الهويات الفرعية والأفكار المختلفة التي تُنظم في سلوكها مجموعات من سكان الوطن الواحد، يتميز بها بعضهم عن بعض، تخلق واقعاً تعددياً قد يكون تعدداً مثيراً ومثمراً أو تعدداً تناحريراً مهلكاً.

تتوقف طبيعة العلاقات بين الهويات على مدى الوعي الوطني الجامع للمجموعات، فإذا كان الانتماء الوطني والهوية الوطنية أقوى من الانتماء إلى المحلي أو الفرعي فإن التعاون والتعاقد أوعي من التناحر والتآكل، فكلما قوي الانتماء الوطني والهوية الوطنية والشعور بالانتماء للشعب كل الشعب قوي الولاء لمصالح الوطن والشعب الواحد.

والتضامن الوطني هو أولى ثمار هذا الوعي الوطني القوي، وكلما قوي التضامن الوطني قويت مناعة وصلابة المجتمع برمته، فكان هذا المجتمع أقدر على المواجهة وعلى التصدي وأجدر بإحراز أبنائه الإنجازات والنجاحات.

124

وعبارة (التضامن الوطني) غاية في الأهمية، وهي تعبر عن وعي وعن ثقافة وعن عواطف، ولا يتأتى ذلك التضامن لأي مجتمع إلا إذا بلغ من الوعي الوطني المستوى المناسب، وعندما نقول وعي وطني نقصد به الانتماء ذهنياً وعاطفياً ووجدانياً للوطن، لا لجزء فيه وللشعب بل للشعب كله بجميع أطيافه، لا لشريحة منه وذاك بأن يتعامل المواطن في وطنه بروح الأخوة والتعاون حتى لو لم يشاطروه الفكرة أو الدين أو المذهب.

وإنني أعرف أن هذا الكلام لربما يزعج الكثيرين من شبابنا العربي المتدين، إذ يريدون من الشاب المسلم أن يعادي ويقاطع ويعلن براءته، وعدم تعاونه مع من لم يكن على دينه أو مذهبه، بالرغم من كونهم إخوة



له في الوطن والقومية، ناهيك عن مخالفة نهجهم المتشدد منهجية القرآن الكريم في التعامل مع الآخر ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: 73]، فبالرغم من كونهم كفاراً غير أن الله ﷻ نعتهم بـ (أخاهم) ونعتهم بـ (يا قومي) وإلا لما استطاع مخاطبتهم ودعوتهم والتحبب إليهم لو أنه ناصبهم العداء وقاطعهم؛ وإنما عاش بينهم بفكرة مختلفة وعقيدة مغايرة يعرضها عليهم ويدعوهم إليها، مبيناً لهم محاسنها وفضائلها، ومظهراً لهم مساوئ معتقداتهم وعاداتهم التي ورثوها من آبائهم من سب أو تسفيه أو تجريح؛ بل لربما هم من يسفهونه أو يسبونهم، ويبقى هو يلتزم جانب الفضيلة والاحترام حيالهم، كما تبين لنا قصة هود مع قومه عاد ﴿وَإِلَىٰ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (١٦) قَالَ يَنْقُورِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 65 - 68]، فبالرغم من تجريحهم وتسفيههم له إلا أن الرسول الكريم ﷺ ظل موالياً جانب الاحترام والفضيلة والنصيحة الأمانة، وذاك حتى يبقى يتسنى له الدعوة والتبليغ والتأكيد تلو التأكيد على جديد وجميل ما يطرح من معتقد وسلوك ليمثل أداؤهم نموذجاً حضارياً جديداً لا مكان فيه لأدواتهم وأساليبهم العنيفة والمهينة لمن يختلف عنهم أو يخالفهم الرأي أو العقيدة، فالناس بنظرها تنظر إلى القلب والقلب لا إلى أحدهما دوناً لآخر، فإن آنتست ورأت تطابقاً بين الفعل والقول، وبين الجوهر والمظهر، أحبت وأقبلت، وإن رأت بينهما تنافراً، نفرت واشمأزت ولربما كرهت، فإنك إن كنت تدعو إلى جديد في



التصور والمعتقد، فلتكن جديداً في كل شيء، ولا سيما في الأساليب والتعامل، فإنهم إن رأوا منك تشابهاً بالأساليب مع المخالف، حتى وإن تميزت عنهم بتصورات ومعتقدات جديدة، فإنهم لا محالة سينفرون منك ومما تدعو إليه، وإن كنت للحق تدعو.

فالناس يميلون بطبعهم، ويحتاجون إلى منظومة من التصورات والقيم والمبادئ التي تحتضنهم، وتحنن إليهم وتحلم عليهم، وتحترم كرامتهم، وتكون معهم في سرائرهم وضرائرهم، وفي أفراحهم وأحزانهم، لا إلى مثلي منظومة فكرية وقيمة ينصبون أنفسهم حكاماً وقضاة، ويشرعون مبتهجين في فرز الناس لفئات وأصناف، يكفرون هذا ويفسقون ذاك، أو يزدرون هذا لأنه يخالفهم، أو يسفهون ذاك لأنه يختلف عنهم، ولا يحترمون إلا من شاكلهم، فلا يبرون ولا يعدلون إلا مع من تماهي معهم بينما القرآن الكريم يقول لنا: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: 8]، لا أقل من البر والقسط مع الجميع، جميع الناس سوى من يقاتلنا ويعتدي علينا.

126

ألا ترى أن هذا المنهج في التعامل يواطئ الفطرة ويوافقها، وترتاح النفس معه وتطمئن إليه، ومما يسترعي الانتباه استعمال كلمة تبرؤهم، وهي مرتبطة في الأذهان بالوالدين، وبر الوالدين، ومن بر الوالدين ألا نقول لهما أف ولا ننهرهما.

ربما هذه إشارة لنا لأن نرتقي بأسلوبنا وتعاملنا مع الآخر المختلف إلى مستوى تعامل الابن البار مع والديه، فضلاً عن التعامل معهم بالقسط



والعدل حين يخطئون كما نخطئ، أو حين يقتربون إثماً كما نقترف، لا أن نجور عليهم ونحيف بهم، محملين أنفسنا ودواخلنا القناعة بجواز ذلك كونهم ليسوا على ديننا أو مذهبنا أو لأنهم لا يحملون أفكارنا ومشروعنا، وهذا لا يجوز في ديننا البتة.

بل هناك توجيه مباشر للمؤمن في أسلوب تعامله مع الآخر المختلف بقوله تعالى ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: 53]، أي لا تبحث يا مؤمن عن الأسلوب الحسن والجميل لمحاورة الآخر ومخاطبته، وإنما اختر الأسلوب الأحسن والأجمل، ففي شريعتنا لا يكفي الحسن والجميل، إنما هو الأحسن والأجمل والأفضل؛ إذ إن هدفك ليس استفزاز الآخر وإغاظته أو قهره أو التشفي إنما التحبب إليه وإقناعه وتقريبه مع قول الحق وتبيينه، ثم له كامل الحرية والاختيار حتى في قضيتي الإيثار والكفر لقوله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29] فما بالناس في القضايا التي هي أقل شأنًا من تينك القضيتين الكبيرتين، فكر! إذا منح الإنسان حرية الكاملة في أن يؤمن أو يكفر بما نزل على محمد ﷺ وهو حق ممنوح للإنسان من الله ﷻ وليس من سلطة بشرية، بحيث قد تمن به على الإنسان إذا ما شطت، أو قد تسلبه منه إذا ما جارت فهذا دليل قاطع بخلود هذا الحق للإنسان، وهو حق الاختيار الحر، وإذا شئنا على طريق السلب، حقه في عدم الإكراه، ولا سيما في عقائد الإنسان وضميره، بل تترك فيها الحرية له وحده ويتحمل وحده المسؤولية على خياراته، متذكرين الآيات الكريمة التالية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]، ﴿وَلَا



نَزَرُ وَازِدَةٌ وَزَرَ أُخْرَى ﴿[الأنعام: 164]﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴿[النجم: 39 - 41]﴾.

هذه المبادئ والقيم موجهة لجميع البشر حتى يتحلوا بها في تعاملهم مع الآخر المختلف، مطلوب التعامل بها من الجميع تجاه الجميع، من غير المتدين تجاه المتدين، ومن المتدين تجاه غير المتدين من باب أولى؛ إذ إن المتدين بتعامله بروح التسامح والبر مع الآخر يتعبد ربه ﷻ، حيث بذلك يستجيب لأمر الله ﷻ ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: 8]، فالاستجابة لأمر القرآن وإرشاداته وتعاليمه عبادة لله ﷻ، لقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3]. وكل أمر في القرآن يفيد الوجوب حسب الأصوليين، فمن هنا نستنتج وجوب التعامل بالحسنى والتسامح والبر مع الجميع من غير المقاتلين أو المعتدين.

وثمة علاقة وثيقة ما بين التعامل بالتسامح والبر مع الآخر وما بين التضامن الوطني إذ إن الاحترام المتبادل، والتسامح بين أبناء المجتمع الواحد المختلفين في الدين أو المذهب والرأي يغذي مشاعر التكافل والتضامن لديهم، فالإنسان يميل بطبعه إلى مساعدة من يتسامح معه ويبادل له الاحترام، ويتداعى لنجدة عند الشدة والنازلة.

وأذكر جيداً في بداية اعتقالني وأسري حيث كنت أيضاً في بدايات



تديني، مع ما يرافق بدايات التدوين من اندفاعات ثورية وحرارة إيمانية حيث أطمع بتحول جميع الخلق مثلي الآن، وأن يعتنقوا ما اعتنقته الآن، وأن يتنوروا بما تنورت به الآن.

الخطورة تكمن في ما إذا كان لصاحب هذه الاندفاعات والوجدانيات نزعه للإكراه ولممارسة العنف حيث بحمده -تعالى- قد عصمني منها؛ إذ وقفت فقط عند النفور الداخلي لمن ليس مثلي في المعتقدات والتصورات، دون تجريح أو تسفيه؛ إذ شعرت أن ثمة حاجزاً شعورياً يفصل بيننا، كنت قد بنيتُه أو بالأصح ابتناه غيري في داخلي من خلال كتاباتهم المتشددة التي لا ترى إلا نفسها، والتي تعادي كل من ليس مثلها، ولا سيما من الفهم المغلوط، والمغلوط جداً لعقيدة الولاء والبراء، وكان هؤلاء المغالطون يزرعون في مشاعر قرائهم أو مستمعيهم الكراهية والنفور والاستعلاء تجاه الآخر المختلف إلى درجة شيطنته وتسفيهِه، ومنهم من وصل إلى درجة التسويغ لاستباحة دمه وماله.

والطريق إلى تحول هؤلاء ضحايا المغالين إلى آلات تدمير وتقتيل قصيرة، وقصيره جداً؛ لذا فإن ما ينبغي استنتاجه مما نشاهده اليوم من تقتيل وتدمير باسم الدين هو وجوب المواكبة القريبة والحاضنة لمن هم في بدايات تدينهم على يد علماء ودعاة أو مؤسسات يسبقون المتشددين إليهم، ينهضون بهم وعياً وترشيداً ووسطية، زارعين فيهم قيم ومبادئ التسامح وقول الاختلاف واحترام كرامة الآخر، والتضامن الوطني وباقي القيم الإنسانية النبيلة والجميلة.



على كل حال، ظل هذا حالي من النفور الداخلي في بداية أسري، يحكمه الآخر المختلف، وبقي الحاجز النفسي العالي الذي يفصل بيني وبينه على حاله، إلى أن جاءت اللحظة المشرقة، والحدث المؤسس لمرحلة شعورية ودعوية ناضجة وأكثر رشادًا، وذلك عندما هجمت إدارة السجن بقواتها على أبناء التيار الإسلامي، وأنا كنت أحدهم، في أحد أقسام السجن الذي كان يقطنه أسرى كل الفصائل يتقدمون ويشكلون ما يشبه (السور الواقى) لنا، مخاطرين بأنفسهم مع استعدادهم لتحمل الأذى والعقاب لأجل أن تمتنع وتراجع إدارة السجن عن الاستفراد بنا، وأن يتسرب إلى وعيها أن الأسرى جسد واحد، ولا يمكن الاستفراد بجهة منهم، وفعلاً هذا ما قد حصل.

والأهم: هو ما حصل في داخلي ونظرتي إلى الآخر منذ تلك اللحظة حيث في طرفة عين شعرت بتهاولي الحاجز النفسي الذي يفصل بيننا؛ إذ كان وقع وقفتهم القوية والمتضامنة جداً معنا عميق الأغوار والأثر وخلط كل محتويات داخلي مما استدعاني على عجل إلى عملية تنظيم لهذا الداخل وإعادة هندسة رؤيتي للعالم الخارجي من جديد، بدأت أسترجع على نحو بطيء مجريات الحدث وما سبقه، وما تبعه من مواقف وآراء، فتمكن مني اليقين بصدق موقفهم غير المتصنع، ولمست عمق القناعة والإيمان بما قاموا به؛ إذ تجلى ذاك من نظراتهم المتحدية، وزجراتهم الرادعة لقوات الإدارة، والأعجب بالنسبة لي. تعاملهم مع الحدث، كأنهم يحتسون كوباً من الشاي، أي أن تصرفهم كان طبعياً؛ إذ من الطبيعي بالنسبة لهم أن يأخذوا هذا الموقف من منطلق الهوية الوطنية الواحدة، وما ينبثق عنها من تضامن وطني وتكاثف بين أطراف الشعب كافة، فبدأت تأخذ بعض



المصطلحات الجديدة طريقها إلى قاموسي الفكري مثل: الهوية الوطنية، التضامن الوطني، الوطن، الشعب، المصير المشترك، الهم الواحد، قبول الآخر المختلف واحترام كرامته وحرية.

ومنذ تلك اللحظة بدأ ينمو لدي الإدراك بمدى أهمية الهوية الوطنية أيديولوجيا، ما دامت حدود الوطن المشترك تجمعنا، ويهمننا جميعاً حمايته وتنميته، والسعي الدائم لنهضته، وخدمة الشعب بجميع فئاته، وهنا أود أن أنوه إلى إشكالية في الفكر الكلاسيكي؛ إذ أن التيار الإسلامي في أدبياته كان يربي منتسبيه إلى الثنائية (فرد- أمة) أي أنك كفرد مسلم تنتمي إلى الأمة الإسلامية المنتشرة في العالم كله، وتربط فيما بينهم أخوة الدين والعقيدة وهذا صحيح غير أن الحلقة الوسطى التي تربط ما بين الفرد والأمة في واقعنا المعاصر قد تم تجاهلها في هذه الأدبيات والتربويات الإسلامية وأقصد هنا الشعب والوطن.

وتغيب هذه الحلقة في الأدبيات الإسلامية اعتبره أحد أهم الأسباب المسؤولة عن غياب مفاهيم ومصطلحات المواطنة والتضامن الوطني والتسامح والتعددية واحترام كرامة الإنسان أيًا كان دين أو مذهب أو فكر هذا الإنسان من وعينا وفكرنا كشباب مسلم متدين، وبالمحصلة غيابها من سلوكنا الكلي مما زج بي، وبغيري الكثيرين إلى أتون التخبط والتردد في كيفية تعاملنا، وشكل وطبيعة علاقاتنا مع جاري المسيحي أو جاري الدرزي أو جاري العلماني أو غير المتدين، فهل أعاديهم أم أقطعهم؟! أم أبغضهم لأنهم ليسوا مثلي في العقيدة أو المذهب؟! وخصوصاً أنهم لا يعتدون عليّ لأنني مسلم، ولا يقاتلونني لأنني على غير دينهم أو مذهبهم أو



فكرتهم، بل يتعاملون معي بحسن الجوار وبأخوة الوطن والقومية، فهل أقاتلهم؟! أو أعاديهم أو أعتدي عليهم؟! وهل إذا كان جاري المسيحي أشد حاجة لمساعدتي من جاري المسلم أقدم عليه المسلم الأقل حاجة، فقط لأن ذاك مسيحي وهذا مسلم بالرغم من حاجته الأشد والمسيسة لمساعدتي؟!!

قبل تلك اللحظة المشرقة كنت أعيش العتمة والتخبط وما يرافقهما من غياب في الاستقرار الفكري والتوازن النفسي والعاطفي، أما الآن فإنني أقرأ نصوص القرآن الكريم، وسيرة الرسول ﷺ بطريقة مختلفة، اعتبرها الأقرب رشاداً والأكثر سداداً؛ إذ ماذا نصنع بالآية الكريمة الواضحة الدلالة والمغزى ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

132

ومن بقي فيه شك في كيفية تعامل الرسول ﷺ مع جيرانه من غير المسلمين فليعد إلى سيرته العطرة حتى يجد فيها طمأنينته وضالته؛ إذ من المعلوم أن الرسول ﷺ من مجرد وصوله إلى المدينة، صنع من المسلمين ويهود المدينة أمة مترابطة برباط المواطنة، وأسس بطريقة غير مسبوقه نموذجاً حضارياً جديداً يعهد للبشرية، تحترم فيه خصوصيات الآخر وكرامته الفردية والجماعية، ومصوغة بوثيقة تعاقدية تذكرنا بدساتير الدولة المعاصرة.

ومما سبق يتبين أن التضامن الوطني هو تعبير إنساني صادق وجميل لنضج عقلي ووجداني وسلوكي لدى أفراد الشعب الواحد في الوطن الواحد الذي قد يتسع حتى يشمل في عباة الكل الإنساني الذين ينحدرون جميعهم من أبينا آدم ﷺ.



فالوجدان لدى الفرد يجد تعاطفه وتراحمه مع الآخرين فوراً بعد أن يعي تمام الوعي أنه يشترك معهم بالهم، والمصير، والذكريات والتاريخ، والغايات الكبرى للمجتمع، ويواجهون نفس التهديدات الخارجية والداخلية التي تمس أمنهم ووحدتهم وتماسكهم كشعب واحد متضامن ومتكافل، وغيرها الكثير من المشتركات التي تنشئ حول الكل الوطني سياجاً واقعياً ومنيعاً يقي الشعب والمجتمع من التشرذم والتمزق والتناحر الذي قد ينذر بالاستسلام والانحيار تحت أقدام الذل والاستعباد.

وثمة أناس يفتقدون للوعي الوطني الناضج، ويفتقدون بالتالي لروح التضامن الوطني، منكفئين على ذواتهم أو على جماعتهم التي ينتمون إليها، دون اكتراث حقيقي بالآخر من أبناء الوطن الواحد والشعب الواحد، هؤلاء مثلي ضحايا غياب التربية الوطنية والتوعية الوطنية والهوية الوطنية، لكنهم إذا ما عاينوا وخبروا بأنفسهم سلوك التضامن والتكاتف الوطني معهم أو مع غيرهم من فئات شعبية أخرى لا تنتمي إليهم بالدين أو المذهب أو الأيديولوجيا وإنما بالوطن والهوية الوطنية والمسؤولية الوطنية؛ فلربما يستيقظ وعيهم من غيبوبته، ويبدأ يشيد على أنقاض بنية الانغلاق والانكفاء الفكري وعيه الوطني الناضج.

أي لربما سلوك وطني ناضج ومسؤول من أحدهم ينشئ عند آخر وعياً وطنياً ناضجاً، ينتج عنده سلوكاً وطنياً تضامنياً يوقظ وعياً وطنياً عند آخر وهكذا، ولذلك حث الإسلام بنصوص كثيرة على توسيع فضاء التعارف، فلكل فرد دائرة فضائه التعارفي، فمنهم من دائرة فضائه ضيقة



وآخر أوسع، والأصوب أن يسعى دومًا إلى توسيع فضاء تعارفه؛ إذ هذا الفضاء هو الساحة التي يتسنى لكل فرد فيها أن يتعارف على الآخر ويتفاعل معه، ويظهر مزاياه الإيجابية من عون وإغاثة وتضامن وتراحم، مما يزيد الفرص في تنامي الوعي الوطني عند من يفتقده؛ إذ في هذه الساحة قد تظهر للعيان أجهل وأبهى صور وأشكال التضامن الوطني من هذا الفرد أو ذاك، أو من هذه الفئة أو تلك.

وثمة آية كريمة تعبر أفضل تعبير عن هذا الاتجاه ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]، وقوله ﷺ «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» [رواه البخاري].

134

فالإنسان لا يستطيع أن يستقل في حياته عن محيطه الاجتماعي، فلاجل الحفاظ على أمنه ورخائه وتطوره سيحتاج إلى تعاون الآخرين معه، كما هم يحتاجون إلى تعاونه، فإذا وجد التعاون بين الناس على قاعدة الحاجة والعوز، لا قاعدة القرابة فقط، على قاعدة العوامل الجامعة الأعم لا على قاعدة النسب والخصوصيات والأقرب والأضيّق؛ فإن الوعي الجمعي والهوية الجمعية سوف تتعزز وتتطور، وأقصد هنا الوعي الوطني والهوية الوطنية الجامعة.

لذا فإنك تجد الصفوة متضامنة ومتراحمة مع جميع فئات المجتمع أبناء الشعب الواحد، والوطن الواحد دونما التفاف إلى هويتهم الفرعية والثانوية



من مذهب أو دين أو أيديولوجيا، منطلقين من وعيهم الوفي «والذي جزء منهم من وعيهم لكرامتهم» ومن مسؤوليتهم الوطنية من غير أن يشعروا بذرة تناقض مع انتمائهم إلى الدائرة الأوسع، الأمة العربية والأمة الإسلامية، فهم مع أبناء الوطن الواحد يشكلون أمة سياسية أمة المواطنة كما شكلها الرسول ﷺ بين أبناء المدينة الواحدة، ما بين المسلمين (مؤمنين ومنافقين) ويهود المدينة، إلى جنب أمة الدين، وهذه الصيغة من أجمل وأنضج الصيغ التعايشية التي تضمن لكل ذي فئة احترام خصوصياتها وكرامتها وحقوقها في إطار الجامع المشترك حدود الوطن والمواطنة والولاء لها.

لقد رافقني في غرفة لسنين طوال أحد الأسرى من إحدى بلدات الجليل حيث يقطنها عرب دروز ومسلمين، وقال لي: إن العلاقة بين الطرفين كان يشوبها غالباً التوتر والاحتقان وانعدام الثقة بالرغم من التجاور في نفس البلدة، وقد ترعرت على هذا الجو من العلاقات المتبادلة؛ إذ كنت أنظر إليهم بطريقة مختلفة تقارب (نحن) و(هم)، وإن كانت كما قلت تجمعنا نفس البلدة ونفس البلدية، وكنا كأننا شبه غربيين يعيشان على أرض واحدة.

و ذات مرة حينما أخطرت السلطات عددًا من بيوت المسلمين بأوامر هدم بحجة عدم الترخيص ضجت الحارة وتوترت الأجواء، وقرر المسلمون أن ينظموا مظاهرة احتجاج على إخطارات الهدم، وإذ بالجميع في لحظة انطلاق المظاهرة في مسيرتها نحو الشارع الرئيسي في وقتها المحدد، يفاجئون بانضمام إخواننا من العرب الدروز إلى المظاهرة بأعداد كبيرة وهم يحملون معهم لافتات كانوا قد أعدوها مسبقًا، ويهتفون بهتافات تعبر عن



تضامنهم وتأكيدهم على شراكة الدرب والمصير مع إخوانهم المسلمين.

وأردف قائلاً: أريد أن أتحدث عن نفسي، عن داخلي أنا: ما إن رأيتهم ينضمون إلينا حتى اختلطت مشاعري من فورها، وغلب عليها السرور والسعادة، لكنهم ما أن اندمجوا بيننا حتى شعرت بالقوة التي في داخلي تتعاضد، وتعاضد سروري، وبدأت أشعر حقاً أن هناك ما يجمعنا أكثر مما يفرقنا وأنا جسم واحد لا ينبغي أن يفرقنا شيء، وأنا أعرف معظمهم، فأخذت أبادل معهم النظرات والابتسامات، وتتعالى أصواتنا بالهتافات، في هذه اللحظات لم أتساءل أو أطرح على نفسي أسئلة، وإنما سمحت لنفسي أن أعيش سعادة الله والتضامن والشعور بالشراكة ووحدانية المصير، وما أجمل هذا الشعور وما أعمق أثره على النفس!

136

وحالما انتهت المظاهرة دون صدام مع قوات السلطة عدت إلى بيتي وأنا أحمل معي خليطاً جديداً من المشاعر، وقطعت على نفسي عهداً أن أقف معهم في ملأهم، وخصوصاً في مواجهاتهم مع سلطات القمع حينما تستهدفهم، وفي البيت أخذت أرتب وعيي من جديد، محاولاً تعريف ما حدث ومحاولاً الإجابة عن تساؤلاتي التي دارت في رأسي، لماذا لم نكن هكذا من قبل؟ لماذا نحرم أنفسنا من سعادة الوحدة وشعور القوة بها؟ لماذا لا ننسى الماضي ونبدأ من جديد؟ أليسوا عرباً فلسطينيين مثلنا؟! أليس هذا كافياً لنجتمع ونتحد على السراء والضراء حتى لو اختلفنا في المذهب؟

في السجن تسنى له أن يكمل الإجابات عن أسئلته، وما أعرفه أننا افترقنا، وهو يحمل معه الوعي الوطني والهوية الوطنية، وما يصطحبهما



من شعور بالشراكة والتضامن والمسؤولية الوطنية حيال الجميع.

فكما أن احترام الآخر واحترام كرامته، والتعاون المتبادل، ووقوف أحدهم إلى جانب الآخر عند الملهمات يعزز أواصر الثقة والتأليف والتقارب؛ فعكس ذلك تفعل النزاعات، وأعمال القتل بين العائلات والحمايل، فإنها تضعف روح التضامن بين أبناء المجتمع الواحد، وتزيد التباعد والتنافر بين الناس وتضرب الوعي الوطني بمقتل.

فلا عجب أن نرى الذين لا يريدون للمجتمع العربي أن يتصرف كشعب موحد متضامن ومتعاون، ويتداعوا إلى نصرة بعضهم البعض أن يقصروا عن ملاحقة ومحاصرة ظاهرة الجريمة المنظمة، وجرائم القتل، وتفشي السلاح عبر تقاعسهم عن اعتقال الجناة وفرض عقوبات رادعة عليهم لكي يكونوا عبرة لغيرهم، فإنهم وإن صادف أن اعتقلوا أحدهم، فالأحكام التي تصدر بحقهم مخففة جداً إلى درجة مضحكة ليس لها غير معنى واحد، تشجيع على استمرار أعمال القتل والسرقة والفوضى في المجتمع العربي، ويريدونها فوضى مستمرة؛ لأنها على نار هادئة حتى تبقى تحت السيطرة.

لكن هذا لا يعني البتة خلو المجتمع العربي من مسؤوليته مما يحدث في المجتمع من تفكك وتفشي وضعف، إذ إن الحلل يبدأ من البيت، من التربية التي يتوارثها الابن عن أبيه، فإذا كان هذا الأب عنيفاً في أسرته، ولا يعرف سوى لغة العنف والزرجر والتجبر في تعامله مع زوجته أو أبنائه وأي منهم سيكتسبه هذا الابن من تصرفات أبيه؟ إنه بلا تردد سيحسب أن كل



المشاكل التي قد تواجهه في الشارع والمجتمع لا تحل إلا بالعنف والقوة، أو ليس هذا ما كان يفعله أبوه؟ ثم غياب التربية في المدرسة، وغياب الفعاليات الاجتماعية والثقافية، التي هي من مسؤولية المدرسة والبلدية، وحتى الجمعيات التطوعية التي تربي وتعلم على الحوار وعلى الأخذ والرد في حل المشاكل، وعلى التفاهم وقبول الآخر واحترام كرامة الجميع وحقوقهم، لها دور كبير في تفشي ظاهرة العنف والجريمة.

أما كيف تؤثر هذه الجرائم على التضامن الوطني والوعي الوطني، فالجواب واضح وضوح الشمس في وضوح النهار. فإذا ما توفر التضامن الوطني في مجتمع ما فإنه يعني: التعاون عند الحاجة، والتكاتف عند المواجهة، فإنك إن رأيت الناس يتسارعون في دعم أحدهم متى تعرض لمصيبة ما أو لشده نزلت به، وهو يحتاج إلى وقوف الناس إلى جانبه؛ فهذا أحد أشكال التضامن الوطني.

ومشكلة الآخر تتجلى إذا ما تعرض شخص أو بلد أو حارة إلى تهديد خارجي كتهديد بهدم منزل أو عدة منازل أو مصادرة أراضي يتداعى الناس أبناء الشعب الواحد إلى نصرته ونجدته حتى لو كان من بلد آخر؛ لأنه لربما اليوم هو، وغداً قد أكون أنا، وذلك على الأقل لكيلا يقع تحت طائلة المثل القائل: «أكلت يوم أكل الثور الأبيض»، وخصوصاً هذا كان مصدر التهديد لنا جميعاً، وأحد المستهدفين هو المجتمع برمته، بقيمه ومبادئه ووعيه وتضامنه الوطني الذي لو بقي قوياً راسخاً في المجتمع؛ فإنه سيحبط جميع المخططات التي قد تستهدف مصالح البلد بأفراده وجماعته.



نظرًا لما قد يتجنبه المجتمع من تماسك أبنائه، وتحليلهم بروح التضامن الوطني من حماية لمصالح الجميع بلا استثناء، ومن التهديدات والمخاطر الخارجية فإنه ينبغي على كل أبناء المجتمع بكل أطيافه وأفراده منع ولجم ما قد يؤدي إلى زعزعة التضامن أو إضعافه، وبالأخص الحد من تفشي ظاهرة النزاعات والشجار بين العائلات التي ربما قد تؤدي إلى الحاق الضرر والتخريب لكلا الطرفين المتخاصمين أو في حالاتها القصوى والمتطرفة قد تصل إلى القتل، وهذا يعني تمزقًا وتلفًا في النسيج الاجتماعي الذي قد يصعب ترميمه ورتق فتقه.

فإن هذه النزاعات قد تنمي في دواخل المتخاصمين آفات التشفي والحقد وتبني الشر للغريم، وإذا ما وقع أحدهم تحت مصيبة أمر هدم منزله أو مصادرة أرضه من قبل السلطات، فإن الآخر لن يتداعى إلى نجده والتضامن معه للحيلولة دون هدم منزله أو مصادرة أرضه، بل سيقول في سريره مدفوعًا بنار حقه وضغينه التي تضطرم عليه في صدره، وكما يقال بالعامية سيقول: «خرجه بيستاهل»، وإذا كثرت النزاعات في البلد، وكثرت «خرجه بيستاهل»، ستكون مهمة هدم المنازل ومصادرة الأراضي قد تسهلت، وتحول كل واحد إلى لقمة سائغة دون أن يدري، أو لربما يدري، لكنه يتناسى، بأن دوره في الهدم أو المصادرة قد يكون غدًا أو بعد غد، وحينها لا ينفع اللوم ولا يغني الندم.

لذا تكمن مصلحة كل أسرة وكل فرد ألا يكون طرفًا في شجار أو مشكلة مع أحد؛ إذ كلما زادت مشاكله مع الآخرين قلت مؤازرتهم



ونجداتهم له، بل إن مصلحته تكمن إلى حد بأن لا تحدث نزاعات ومشاجرات في بلده، وإذا ما ظهرت بوادر شجار أو مشكلة سعى إلى إخمادها قبل اشتعالها؛ لأنه إن لم تصبه نارها فلن يسلم من دخانها، ولينظر الواحد معتبراً ومتعظاً إلى من يكون طرفاً في مشاكل ونزاعات والسعيد كما قال الأوائل من اتعظ بغيره والشقي من اتعظ بنفسه، فلا ينتظر حتى تحرقه النار وتكويه لكي يعرف أن النار تحرق وتكوي.

ومن الأفضل لكل بلد بالترابط مع كل البلدان أن يكون هناك حراك اجتماعي، وخصوصاً شبابي، ينشط في مجال التقريب والتعريف بين شباب البلد وبين شباب البلدات الأخرى، والتكثيف من وتيرة التفاعل بينهم عبر نشاطات وفعاليات ثقافية ورياضية وتربوية وترفيهية مشتركة حتى تبقى جسور الثقة قوية، والنفوس مهيأة للتداعي عند الحاجة، ويستمر جني ثمار التعارف والتقارب على نحو متواصل.

أعني أنني أكثر من الحديث حول التضامن الوطني، بيد أن إكثاري فيه يتناسب قطعاً مع أهميته البالغة في استمرار تماسك المجتمع ووحدته، فهو قوام المجتمع القوي وعماده، واللينة التي توطن العلاقة الحسنة بين أطراف المجتمع كافة.

وإذا عدنا إلى «وإياك نستعين» نجد أنها أتت مباشرة مع «إياك نعبد»؛ إذ إن حرف الواو باللغة العربية الذي يربط بين شيئين، يفيد المعية، كأن تقول جاء أحمد ومحمد، نفهم أن أحمد ومحمد جاءاً معاً، لم يسبق أحدهما الآخر، بخلاف حرف الفاء الذي يفيد التعاقب، كأن نقول جاء



أحمد فمحمّد، أي: جاء أحمد وبعدها بقليل جاء محمد، وكلاهما بخلاف «ثم» إذ إنها تفيد التراخي من حيث الزمن كأن نقول جاء أحمد ثم محمد، أي جاء أحمد وبعده بكثير جاء محمد.

ولما كان الأمر كذلك فإن ثمة إشارة أو إشارات بينها هذا التلازم ما بين «إياك نعبد» و«إياك نستعين» ينبغي التقاطها وتحليلها وفهمها.

ومنها: ربما لأن عبادة النهوض بتكاليف الخلافة والإعمار والبناء تتطلب من الصفة الواعية لكرامتها طاقات وجهوداً مضيئة ومتواصلة؛ لكي تبقى البشرية جمعاء بحالة صعود دائم نحو الكمال والسعادة والرخاء فكأن الصفة تقرر وتعترف بين يدي ربها في الصلاة وخارجها بعجزها ونقصها وافتقارها، وبحاجتها إلى إغاثة الله ﷻ لها غير المنقطعة؛ لأنها لا تحتمل انقطاعها طرفة عين لثقل وعظيم الأمانة التي اختيرت لحملها وتحقيقها وإشاعتها في عالم الناس وباقي العوالم في هذه الأرض، والتي تقع جميعاً تحت مسؤولية استخلاصها.

فهل يا ترى لمثل هؤلاء يعرف الكبر طريقاً إلى قلوبهم؟ أم هو ثوب التواضع الذي يرتدونه وتزدان به أعمالهم وأرواحهم؟

ولاحظ معي بقلبك أيها القارئ العزيز كيف أن عبارة «إياك نستعين» تخرج من قلب قائلها المستعين على نحو رجاءٍ مُلح تتردد في كل أنحاء أعماقه وأغوار روحه، تتصاعد متضرعة إلى أعلى مناشدة ربها بجوارح خاشعة، وعيون واقعة، وبصدور هادرة بأن يبقى دومًا معها بعونه ومدده.



ثم أستلهم من التلازم بين جزأي الآية «إياك نعبد» و«إياك نستعين» ومن واقع التجربة الحية إنني لا أستطيع أن أنهض بجميع تكاليف الخلافة ومهام الإعمار بمفردي، ما يترتب عليه الإدراك لدى الصفوة بأهمية تشكيل الجمعيات والمؤسسات المنظمة ما يضمن تأطير العقول والطاقات والجهود في بوتقات جماعية قادرة على القيام بتلبية حاجات الناس وأعباء المهام، وجميع التكاليف بشكل عام، وقد تكون هذه المؤسسات على مستوى محلي أو إقليمي أو حتى عالمي، ولما كانت جماعية العمل من مستلزمات «وإياك نستعين» فإن الأمر يتطلب:

أولاً: حماية سير العمل بأفضل أداء وأعظم عطاء من كل فرد من أفراد الجماعة.

ثانياً: ضمان بقاء روح التعاون والتكامل والوئام في صفوف العاملين.

ثالثاً: الإبقاء على روح التطلع نحو التطوير والتحسين في الأداء والتوق المستمر والمضطرم للإبداع والتميز.

رابعاً: الصدق والحرص على نجاح مهام الجماعة في تحقيق الأهداف.

خامساً: استشعار كل فرد من أفراد الجماعة أنه المسؤول وحده عن نجاح الجماعة في مهامها، وأنه إذا ما قصر أو استهتر فإن المشروع برمته عرضة للانهيار أو الإخفاق.

ثمة مبدأ هام إذا ما تم اعتماده بصدق ووعي ناضج من قبل الجماعة فإن هذه المتطلبات الخمسة ستجد لها مناخات مناسبة وإجابات كافية، وذاك مبدأ الشورى، وهذا المبدأ سنتناوله في المبحث التالي إن شاء الله.



وإن من يتوق ويتطلع لأن يكون من الصفوة المؤمنة الواعية الداعية ينبغي عليه إن وصل إلى وعيه لكرامته، أن يحرص أشد الحرص بأن يكون قدوة حسنة لمحيطه الاجتماعي وفي أوساط جماعته، وبأن تتمثل فيه قيم ومبادئ وفضائل جمّة، فكراً، وسلوكاً وعاطفة، مثل: الحلم، الصبر، العلم والإيثار، الزهد، الأمانة، الصدق، المبادرة والريادية، الإبداع والتميز، التضامن والتعاون وباقي معاني الخير والعدل والإحسان.

وهذا الاستحقاق يوجب يقظة مستمرة، وتحشيداً متواصلاً لطاقات الروح والنفس، وتعالٍ على الذات وحظوظها المفرطة، ما يجعل المرء يشعر بحق في أعماقه عظيم حاجته إلى معية الله ﷻ وإعانتة الدائمة له، فلا عجب بعدها؛ نظراً لعظم الحمل هذا أن يبقى يستعين بالله في صلواته وفي غير صلواته ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153]، ولكي لا يكون هنالك فجوة ما بين القول والفعل، ما بين مقاله وحاله؛ لأنه لا شيء أكره على النفس من رؤية أحدهم يخالف مقاله حاله.

أخيراً يستشعر أيضاً الواعي لكرامته حاجته إلى عونهِ -تعالى-، بأن يهديه للصراط المستقيم وللمنهج القويم، وأن يثبت عليه عند أدائه لعبادة القيام بتكاليف الخلافة في الأرض.

«اهدنا الصراط المستقيم»:

لو تتبعنا بداية المعاني اللغوية لكلماتها كما هي في المعجم العربي لتسنى لنا التظلل بفيئها في إطار رؤيتنا الجديدة لسورة الفاتحة، فإننا سنجد المعاني الآتية:



هدى: أرشد، بيّن، عرّف، دلّ.

الصرّاط: الطريق، السيرة، الهيئة، المنهاج، السبيل.

المستقيم: ضد المعوّج.

وكان الصفوة التي لا تكل في طلب الاستعانة بالله ﷻ «وإياك نستعين» تتضرع إليه - تعالى - في كل يوم مرات ومرات، في سكونها، وفي حركتها، وفي أول عملها، وفي وسطه، وفي آخره، في سياق أدائها الدائم لعبادة النهوض بتكاليف الخلافة من إعمار وإصلاح وإعانة المحتاج، والأخذ بيد المسكين واليتيم والأرملة والمطلقة، وكل محتاج ومظلوم ومحروم وفي إطار جهادها لتوفير السعادة للمتعثرين المعسرّين من خلال إبداعها الحلول، والعلاج، والأجوبة، وحتى في سيرتها الذاتية وحياتها الشخصية، وتتضرع إليه - تعالى - بأن يرشدها، ويعرفها الطريق الأنسب والخيار الأقوم الذي يستقيم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولا يتعارض أو ينحرف عن كليات الإسلام، ومقاصده العامة، وأصوله، ومبادئه التي بها يتحصل الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة لمن سار على هديها واقتفى أثرها.

فالإنسان الخليفة، سواء ذاك الذي يشغل منصب رئيس الدولة، أم الإنسان العادي، فضلاً عن الصفوة يدرك أن صراطه المستقيم ونظامه الذي على وحيه يسير هو الإسلام، فالإسلام هو منهج الخلافة لكل فرد.

لكن بما أن الإنسان لا يتضرع إلى ربه بسورة الفاتحة طالباً عوناً وهداية للطريق المستقيم إلا إذا كان سلفاً قد اعتنق الإسلام ديناً ومنهجاً؛



إذاً لماذا يظل يدعو لأن يهديه ربه الصراط المستقيم؟ نظراً لأنه قد اختار الصراط والمنهج، وهو الإسلام والالتزام به فلم إذاً هذا الدأب في الدعاء والطلب؟

ظاهرياً كأننا أمام إشكالية وتناقض لكن ليس الأمر كذلك، بعض العلماء، وفي محاولة منهم لحل هذه الإشكالية التي قد تبدو للوهلة الأولى أنها تنطوي على تناقض ما يبعث على الحيرة قالوا: اهدنا تأني بمعنى ثبتنا، فـ «اهدنا الصراط المستقيم» تعني ثبتنا على دينك الحنيف وهو الإسلام.

لكن عند رجوعنا إلى معجم «لسان العرب» لم نعثر على هذا المعنى من مادة «ه، د، ي»، سوى ما ملكناه في أول المبحث، لكن بالنسبة لهم فإن هذا المعنى قد فككك لهم الإشكالية وأراح بالهم.

قد يكون هذا صحيحاً مائة بالمائة، وما سأقوله الآن يبقى اجتهاداً، قد أصيب فيه وقد أخطئ، لكنه على كل حال لا يتعارض والتفسيرات الموجودة في كتب التفسير، دائماً هو منشور في نطاق هذه التفسيرات وبدخلها، ولم يحتج مني غير تسليط الضوء عليه وإظهاره، وبمقدوره أن يوسع للقارئ آفاقه وينوع خياراته، ويعمق استقصاءه عند تحديد مقارباته في حياته الحركية والفكرية، وفي حياته الشخصية والعامة.

أظن أنه بالإمكان حل ما بدا للبعض تناقضاً، وعلى النحو الآتي، فحينما نرتل في كل صلاة وخارج الصلاة «اهدنا الصراط المستقيم» فإنه ينبغي علينا أن نتوخى معنيين، الأول: ثبتنا، والثاني: بين لنا ووفقنا.



بالمعنى الأول: ثبتنا، فإننا نتوجه إلى الله ﷻ في كل صلاة بأن يشبثنا على الصراط المستقيم، وهو الصراط الذي استقام عليه جميع الأنبياء من لدن أبينا آدم ﷺ إلى رسولنا محمد ﷺ، التوحيد وعبادة الله ﷻ وجملة المعتقدات والتصورات عن الكون والحياة والإنسان فضلاً عن أمهات الأخلاق: الصدق، الأمانة، الوفاء، غيرها، واحترام كرامة الإنسان.

هذا هو «الصراط المستقيم» الذي نتضرع إليه -تعالى- بأن يشبثنا عليه، ويزيدنا فيه رسوخاً وتمكيناً، لكن فيما يتعلق بالظنيات، بمعنى النصوص التي لها أكثر من دلالة، إضافة إلى ما يقابلنا في الحياة من مفارق طرق في المجالات كافة وعلى المستويات كافة، وتحتاج منا إلى اعتماد خيار من بين عدة خيارات، والتي لربما تبدو جميعها حسنة، فنريد أن نختار الخيار الأحسن، أو تبدو جميعاً سيئة فنريد أن نختار الأقل سوءاً إذا ما اضطررنا إليه، عندها نتفرغ إلى أدلة لأن يبين لنا ويوفقنا لاختيار «الصراط المستقيم» في هذه القضية أو تلك من بين جملة الخيارات المعروضة أمامنا، أو بأن يوفقنا في توفير الأمثل من الخيارات أو الحلول بقدراتنا الذاتية.

ولزيادة التوضيح نقول: إن الصفوة هي تزاول مهمات الخلافة في الأرض، تواجهها مفارق طرق كثيرة خارج نطاق القطيعات، تضطر معها لأن تحسم خياراتها وتقرر بأي اتجاه تسير، هذا فضلاً عن حياتها الخاصة وما يواكبها من قرارات وحسم بين الخيارات.

فالإنسان كل إنسان، يجد نفسه يقف كل يوم مرات وكرّات، أمام مفارق من الطريق تطلب منه اتخاذ قرار واعتماد خيار من جملة خيارات،



فتجده يضطر لأن يعالج الكثير من الأسئلة التي يحاور بها نفسه أو يتباحث بها مع نظرائه ماذا أفعل؟ ماذا أختار؟ أي الخيارات هو الأنسب لما أواجهه حيث يكون الأكثر جلبًا للمنفعة والأكثر درءًا للمفسدة؟ ومثلها الكثير.

وفي هذه الحالة، عليه أن يجتهد في رأيه ويحشد لأجل ذلك خبراته وتجاربه ومطالعاته ومشاوراته، ومع ذاك فقد تكون القضية أو الواقعة التي هو بصدد معالجتها تتسم بكثير من التعقيدات والتشابكات ما يعاظم لديه صعوبة وعناء الاختيار والحسم، فيتفقم في هذه اللحظة، بعد كل تحشيد واجتهاده إحساسه بالتوجه المُلح إليه تعالى بأن يوفقه ويبين له الخيار الأنسب والأمثل من بين الخيارات الذي يستجيب لمقتضى اللحظة ومتطلباتها، ولطبيعة الواقعة أو القضية وملابساتها، فيرفع يديه إلى أعلى: يا رب «اهدنا الصراط المستقيم» اهدني ووفقني للخيار الأنسب والأمثل والأجمل والأكثر استفادة؛ إذ لربما تكون هنالك خيارات أخرى تترأى له أنها تحمل هي الأخرى الصواب والاستقامة والجمال، لكنه يتقصى مجتهدًا الخيار الأمثل، وليس مجرد خيار مناسب وصحيح بل الصراط والطريق والمقاربة الأفضل والأنسب لمقتضى القضية وطبيعتها، والمنزهة عن الهوى، والخطوط والضعف الذي لربما يعتريه عند الاختيار والحسم واتخاذ القرار، هكذا أظن أنني بهذه المقاربة قد بينت المعنيين: التثبت، والتبيين.

«اهدنا الصراط المستقيم» واتخاذ القرار:

وقبل الخوض فيه، تبين لنا أنه إذا ما ربطنا «اهدنا الصراط المستقيم» في مفهوم الكرامة، فهي تكون، يقينًا لا يساوره الشك، ضد التقليد



والخمول والالتكال، وهي دعوة إلى الاستقلالية والاعتماد على الذات، وإعمال الفكر والبحث والتقصي، والريادة، وهذا كله في عملية الاهتداء إلى «الصراط المستقيم» في كل المجالات وفي كل القضايا، وذاك لأحافظ على لباب كرامتي؛ لأنه في طلب الحل من الغير أو تقليده فيه إهانة أشد الإهانة، وانتقاص أشد الانتقاص لصميم لباب كرامتي، التي يحرص الحر والعزيز أشد الحرص على حمايتها وصونها.

لذا فالصفوة تجتهد دومًا لتجتزح لنفسها الحل والمنهج في كل ما يواجهها ويتحداها أو يهددها، لتبقى هي المثل والنموذج لا المقلدة أو المستوردة.

148

بعض الناس لا يتخذ المنهج الصحيح عند الحسم والاختبار، فترى أحدهم وهو هاجع أو جالس ومفعم بالكسل يمد يديه عند مفرق الطريق داعيًا: يا رب اهدني الصواب، أو يا رب اهدني الأنسب، وهو للأسف لم يعمل عقله، ولا فكره ولم يستدع تجاربه، ولم يستقص الخيارات الممكنة، وتبين سلبيات كل خيار وإيجابياته، وإنما يتصرف كالتالب الابتدائي الكسول والخامل الذي يريد أن ينجح في الامتحان فيدعو ربه: «يا رب نجحني، يا رب سهل علي الامتحان»، وهو لم يتحضر ولم يستعد له كما ينبغي، أليس هذا الطالب مدعاة للشفقة والسخرية في آنٍ واحد؟

ثمة لفظة أخرى نستلهمها في حال اللحظة الحاسمة حيث فيها يحتاج المرء إلى حسم وقرار من بين عدة خيارات، حتى لو جابهته الواقعة أو المعضلة منفردًا، فإن الآية تشير إلى الجماعية كما يتضح من منطوقها: «اهدنا



الصراط المستقيم» وليس اهدني الصراط المستقيم، ما يكسب مبدأ الشورى والمشاورة أهمية قصوى، وهذا يعرفنا بمعالم المنهج السديد لاتخاذ القرار، فالأول نعرف القضية أو الواقعة التي تجاهنها بكل تفاصيلها وأبعادها وخلفياتها، وثانيًا: أنقلها من مستوى الفرد إلى الجماعة بحيث نمارس (العصف الذهني) حولها، أي نزاول مبدأ الشورى بحققها، والتي تعني استقصاء الخيارات الممكنة للحل والعلاج وما يصاحبها من إيجابيات وسلبيات لكل خيار، ثم يتم اعتماد الخيار الأكثر نفعًا وإيجابية، والأقل ضررًا وخسارة.

وهذا نهج قرآني يبين كما تعكسه الآية التالية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219] فالعاقِل والراشد يتجنبهما؛ لأن سلبياتهما أكثر من إيجابياتهما، أوليس هذا تقريرًا لميزان المصالح والمفاسد؟ وهناك معلم ثالث لمنهج «اهدنا الصراط المستقيم» وهو ألا يتعارض خياره مع فطرة الإنسان، بل أن ينسجم معها، ويتوافق مع ضرورة تطابقه مع الوسطية، بمعنى لا إفراط ولا تفريط، واليك بعض الأمثلة:

الأيدولوجية التي طغت فيها الجماعية على حساب الفرد والملكية الفردية؛ تصادمت مع فطرة الإنسان أيما تصادم حيث إن الإنسان مفتور على نزعة التملك، فإذا ما سلبته هذا الحق، فإنك عمليًا أخرجه عن طبيعته وإنسانيته، أي شوهته، فلا غرابة إذاً إن سقطت هذه الأيدولوجية ولم تصمد أمام إنسانية الإنسان.



والصراط المستقيم حول هذه القضية إلى الوسط بين الجماعة والفرد، فللفرد حقوق، وللجماعة حقوقها، وينبغي احترام الحقوق جميعها، وإذا ما تعارض حق معين للجماعة مع حق للفرد، فيقدم حق الجماعة على حق الفرد، بأقل خسارة للفرد، مع استعدادية الجماعة للتعويض، وبهذه المقاربة قد توافق الصراط المستقيم مع الفطرة الإنسانية من حيث الاعتراف بحق الفرد بالتملك من جهة وبأدائه لبعض الواجبات المالية تجاه الجماعة، مثل الزكاة، كما قال عنها ﷺ «تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم» من جهة أخرى.

وثمة مثل آخر لربما يواجه الكثير من شبابنا المتدين حديثاً: شاب التزم من قريب في الإسلام، وهو ينحدر من أسرة غير متدينة وقد تكون يسارية أو ليبرالية أو غير ذلك، ووالداه ليس فقط لم يحبا توجهه الجديد بل يحاولان إبعاده عن دينه الذي اعتنقه بتسفيهه وتتفيهه، ونعته بكل النعوت المنفرة والمبعدة، فيحتار هذا الشاب، فهو مشغوف بهذا الدين ومؤمن به أشد الإيمان، فلا يستطيع حتى مجرد التفكير بالارتداد عنه، فيتساءل مغموماً في سره: هل أهجرهما؟ أو هل أقاومهما إلى درجة إيدائهما؟ لكنهما أبواي.

وحقاً كثير من الشباب يهجر والديه، ومنهم من يؤذيهم ولو بالكلام المسيء باسم الدين طبعاً، وبعضهم لا يقاوم ولا يؤذيها ولا يهجرهما ويبقي معها على خير، لكنه في داخله غير مطمئن تمام الاطمئنان إلى سلوكه هذا ظاناً أن ما يقوم به من طاعة لوالديه اللذين يجتهدان في صرفه عن دينه لا يستقيم مع مبادئ وتعاليم الدين.



الجواب الشافي لهذه المعضلة، نجده في القرآن الكريم، وهذا الجواب يوافق ويوافق تمام الموافقة الفطرة الإنسانية، ويحافظ على مبدأ الوسطية بأروع صورها الجميلة.

فضلاً، عن الآيات الكريمة الكثيرة التي تحث على طاعة الوالدين وبرهما، إلى درجة ألا نقول لهما «أف» فإن ثمة آية كريمة تمنح الشاب المذكور أعلاه الجواب الكافي والوافي لحيرته ﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثَمَرٍ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقبان: 15].

لو بذل الوالدان كل جهدهما ومهاراتهما لصرفك عن دينك فلا تستجب لهما بعد أن هداك الله ﷻ، لكن احرص أشد الحرص أن تستمر في طاعتها وحبها وبرهما، ومصاحبتهما بالحسنى ما داماً على قيد الحياة.

المرء في داخله لا يمتثل ولا يستطيع إيذاء والديه أو إهانتهم البتة إلا إذا كان معتوفاً أو مجنوناً أو متعالياً إلى حد العمى، فتخيل إذاً لو أن الدين أمره بإيذائهم أو حتى هجرهما بسبب كفرهما فإنه لربما يستجيب للدين الجديد، لكن الغصة ستأكله أكلاً، والكمد سينهشه نهشاً؛ بسبب ما يورثه التناقض الداخلي الذي يعانيه ويكابده؛ إذ إن الأمر يخص أقرب الخلق إليه غير أن اختياره التمسك بدينه من جهة، والتشبث بطاعة والديه وحسن صحبتها بالرغم من كفرهما وتحريضهما مرة أخرى؛ قد وافق بخياره هذا الفطرة والطريقة الوسطى، وحاز جراء ذلك على سلامه الداخلي.

ومن الأمثلة الأخرى التي قد تواجه المرء ربها يومياً، ويحتاج معها



إلى حسم بين عدد من الخيارات؛ كأن يواجه الإنسان خطبًا، وتأتي معالجته عبر أحد خيارين، أحدهما أسهل وأقل تكلفة، والثاني أعقد قليلًا، وأكثر مشقة وتكلفة، لكن الخيار الأول قد لا يروق لبعض الناس، وربما يغمزون بمن اختاره، والثاني مرشح بأن يحظى صاحبه بالإعجاب والاستحسان، لكن يجب التنويه إلى أن المنافع في كل خيار أكبر من المفاصد، أي أن الخيارين مبرران في ميزان المنافع والمفاصد، فنظرًا لذلك يستطيع أن يختار بلا تردد الخيار الأول الأقل مشقة، والذي هو من «الصراط المستقيم».

ناهيك عن أنه يتماهى مع الفطرة الإنسانية؛ إذ أن المرء يميل بطبيعته وجبلته إلى السهل واليسر والأقل مشقة وتكلفة حتى إن الرسول ﷺ علّمنا أن ندعو الله ﷻ بأن يسهل لنا الصعب ويخفف عنا المشقة والعناء «اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت تجعل الحزن سهلاً» [رواه ابن حبان]، والحزن هنا كناية عن المشقة والصعوبة، ومن قبل تقول الآية الكريمة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

«اهدنا الصراط المستقيم» وحرية الرأي:

وثمة قضية في غاية الأهمية ستواجه كل إنسان في حياته الفكرية والسياسية وحتى الشخصية، تتعلق في كيفية التعامل مع الآخر المختلف والمخالف، هل يتعامل بحلم وروية؟ وهل من حق الآخر أن يختلف معه حول الحقيقة التي يحملها ويؤمن بها؟ أم يمنعه ويقمع رأيه؟ ويفرض بالإكراه (حقيقته) ورأيه هو ويحاول فرضهما على الناس في سوق الأفكار؟ لأن تسعى أن يكون رأيك وفكرك ومعتقدك الأكثر قبولًا واستحسانًا



واعتنافاً لدى الناس كافة يتماشى ويتفق مع الفطرة الإنسانية، غير أن سعيك لفرض رأيك وفكرتك على الآخر يتعارض ويصطدم مع الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها؛ إذ أن الإنسان مفطور على رفض ونبذ الفرض والإكراه، وينزع بحمية إلى حريته في قول ما يشاء والتعبير عنه بما يشاء.

وأقول إنه يتعارض مع الفطرة الإنسانية؛ إذ إنك أنت يا صاحب الفكرة والرأي الذي تؤمن بهما أنهما هما الحقيقة بعينها ستجد نفسك ترفض وتنبذ إذا ما تعرضت للفرض والإكراه من غيرك ممن يعتقد أنه هو من يملك نواصي الحقيقة أو حتى إذا ما منعت من الإدلاء برأيك وفكرك والتعبير عنها سيغمرك حينها الشعور بالقهر والظلم والاستبداد المقيت، فالذي لا تقبله لنفسك لا تقبله لغيرك، ومن العدل أن تعامل الناس مثلما تحب أن يعاملوك.

ثم إن الفرض والإكراه يتعارض مع كرامة الإنسان فضلاً عن اصطدامها مع نظرتة وهذه الكرامة كما قلنا في الفصول السابقة، ولا سيما «لباب الكرامة» قد قررها الله لا للإنسان لكل إنسان أيًا كان هذا الإنسان، وذاك حينما نفخ الله ﷻ من روحه في آدم ﷺ في السماء حتى قبل الأمر بالصلاة والصيام وأسجد له الملائكة تكريماً له ولأبناؤه من بعده لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: 70]. فهذه الآية الكريمة تؤكد أن البشر جميعاً متساوون بالكرامة «لباب الكرامة» حيث لا فضل فيها لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود، كما أن الشاب من بين مجموعة



شباب لا يستطيع أن يتباهى ويدعي تفوقه عليهم بأنه شاب ذكر، فكل المجموعة شباب وذكران، ومثل البنت من بين مجموعة من البنات، فهن أيضًا بنات وإناث، وكذلك لا يستطيع أن يتباهى أي إنسان على إنسان آخر بـ (لباب كرامته) فلكل إنسان لباب كرامته، وإنما يتفاضلون بينهم بوعي الكرامة على شقيه، فمن بلغ الوعي بكرامته إلى حد النضج يكون أرقى ممن لم يبلغه، ومن تحقق وعيه لكرامته فهو الأرقى، وهو الأنقى، وبلغه القرآن الكريم ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13] تشير هذه الآية إلى أن جميع الناس بلا استثناء ذوو كرامة (لباب الكرامة)، ويجب احترامها من الجميع للجميع؛ إذ إن فعل التفضيل «أكرمكم» يشير أن الكل كرماء، لكن أكرمكم عند الله ﷻ أتقاكم له، واحترام هذا الكرامة (لباب الكرامة) التي لدى البشر وأبناء آدم ﷺ من قبل الإنسان المتدين طاعة وتعبد لله ﷻ.

لكن انتبه إلى أن اختبار احترامك لكرامة الآخرين يبرز على نحو واضح مع من يختلف معك، وليس مع من يوافقك الرأي والقناعات، فأنت تحترم كرامته، أنت عملياً تحترم إقرار الكرامة له من الله ﷻ فالله ﷻ يحبك أن ترفض ما يخالف قناعاتك، لكن مع احترام حق الآخر بالتعبير وإبداء الرأي المخالف، ومن مصدر تعبدك لله ﷻ باحترام ما أقره الله ﷻ في احترام كرامة الآخرين.

نعم قد يضيق صدرك بما يقولون، أو لا يعجبك ويصطدم مع ما



تعتنقه وتحمله من أفكار ومعتقدات وآراء، فعليك أنت أن تصطبر وتحلم وتعود نفسك، وتدرّب صدرك على التحمل والتسامح، لا أن تجنح إلى إلزامه رأيك أو منعه من رأيه، فتكون قد انتهكت كرامته، بخلاف ما توحى به آيات الكرامة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾.

وثمة آيات قرآنية كثيرة تشير بوضوح إلى عدم قمع رأي الآخر حتى لو كان معارضاً لرأيك إلى حد القضاء الكامل، بل مطلوب منك البلاغ وأن تجادله ليس بالحسني، بل بالتي هي أحسن.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ﴾ [ق: 45].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (١٧) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجرات: 97 - 98].

﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية 21 - 22].

أوليس هذا يعني احترام «لباب كرامته» بإتاحة الحرية له لإبداء رأيه وفكره وقناعاته «فكر قليلاً».

«اهدنا الصراط المستقيم» ومبدأ الشورى:

الشورى وضدها الاستبداد أي الاستفراد بالقرار، وعقلية الاستثناء بكل شيء على حساب الشراكة والعقلية الجماعية، وهي كما قال عنها



عبد الرحمن الكواكبي «الاستبداد هو: غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة، والاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة».

ويقول أيضًا: «عند إطلاق عبارة الاستبداد فإنها تعني صفة للحكومة المطلقة العنان فعلاً أو حكومة تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب حقيقي»⁽¹⁾

ثم إن مساوئ الاستبداد كثيرة وكثيرة جداً وعواقبه وخيمة جداً وفداحة الاستبداد ستطال بالشر والفساد والتعفن الأفراد والمجتمع بقيمه وعاداته والأهم بمستقبله وآفاق تطوره ورقيه.

وليست من المبالغة إذا زعمنا أنه إذا أردت دفع مجتمع أو جماعة إلى الركود والتعفن والتخلف، فغداً لديهم عقلية وثقافة الاستبداد، فلا استبداد كالجراثيمة، فإذا ما لاقت بيئة مناسبة فسرعان ما تنتشر فيها وتتكاثر، وتحفر لها مواقع مستحكمة، وجراثيمة الاستبداد قد يمارسها الأب في أسرته مع زوجته وأولاده، وقد تكون في أوساط جماعة أو حزب سياسي، وبالطبع في أوساط الحكم.

إذاً فأينما يحل الاستبداد انتصبت خيمة التخلف والانحطاط العلمي والخلقي والقيمي، ومن هنا جاءت أهمية الشورى كثقافة وفكر وممارسة في الإسلام في نصوصه وفي ممارسات النبي محمد ﷺ.

فالإسلام يرفض الاستبداد أغلظ الرفض، وعلماء الأمة يؤسسون رفضهم له، اعتماداً على آيات القرآن الكريم الصريحة الصحيحة، والتي

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد، ص 105.



تأمر صراحة بالشورى والتشاور كحق للمحكومين على الحاكم بقوله تعالى بصيغته الأمر هنا ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 59] وبصيغة وصف حال المسلمين هنا ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَنْبَغُ﴾ [الشورى: 38] فالإسلام لا يتعامل مع الشورى كآلية من جملة آليات نظام الحكم فحسب، وإنما ينظر إليها كثقافة وعقلية وعادة؛ لذا فالمولى ﷺ يريد أن يرى المسلم بفكره وعقليته، وعاطفته ووجدانه، وسلوكه وتصرفاته؛ تشاورياً بكل ما تحمل الكلمة من دلالات ومعان، ولو لم يكن الأمر كذلك لما بيّن ﷺ في الآية الكريمة ضرورة تغلغل ثقافة التشاور والشراكة في اتخاذ القرار حتى في الأسرة في كل شيء حتى في الأمور التي قد تبدو بسيطة وغير مصيرية: كنظام الفطام والرضاعة لقوله ﷺ ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: 223] أي الزوج والزوجة.

هذا فضلاً عما أوضحته السنة العملية للرسول ﷺ؛ إذ إن الرسول ﷺ كان يشاور الصحابة رضي الله عنهم في الحرب والسلم، وفي الشدة والرخاء، وفي الصغيرة والكبيرة، وفي كل شيء يخص أمر الناس ما دون التشريع والعبادة، وعبد الرحمن الكواكبي يرى الشورى الدستورية الدواء لداء الاستبداد.

والشورى تعني -بلا ريب- مشاركة عقول الآخرين وخبراتهم، لاستخراج أفضل ما لديهم من فكر وجيه لبلورة موقف أو قرار أو رؤية، سواء أكان ذلك في الأمور العامة أو الخاصة.

وتزداد ضرورة المشاورة تعاظماً لاسيما في الأمور التي تخص أيضاً



الآخرين بحيث أثار القرارات ستطال حاضرهم ومستقبلهم، فالزوج حين توجهه لاتخاذ قرار تطال آثاره الزوجة والأولاد فلا بد أن يتشاور معهم، فلكل واحد منهم أحلامه وحاجاته، ومن حقهم بأن تؤخذ بعين الاعتبار، وتؤثر على شكل القرار، فإنه إذا ما توحدت النتيجة عن فشل أو نجاح جزئي، فلكل سيتحمل المسؤولية ويرضون بها دون عتاب.

أما لو استفرد الزوج بالقرار هو وحده من سيتحمل مسؤولية الفشل، وحينها سيثقله وسيرهقه، ليس الفشل وحده فحسب، بل نظراتهم اللائمة، وربما اهتزاز ثقتهم بجدارته في اتخاذ القرارات، وهذه هي النتيجة الأشد قسوة من الاستفراد بالقرار على القلب ليقوم يعقلون.

وعقلية الرجل العربي، وهي عقلية قبلية، تنجح لتبقى بيده كل السلطات والصلاحيات، لا يشاركه بها أحد مهما علا قدره وارتفعت قيمته، فهل مثل هذه العقلية تستوجب من يتشاور مع امرأة زوجته - وتتجاهل ما ورثته أبا عن جد المثل القائل «شاوروهـن وخالفوهـن»؟

هذه العقلية لا تنظر إلى الزوجة كشريكة حياة في كل شيء، ورفيقة درب في السراء والضراء وفي الشدة والرخاء، بل في رسم شكل الحياة والمشاركة وصنع القرار.

هذا على مستوى الأسرة، أصغر وحده جماعية في المجتمع، أما الشورى على المستوى العام، بما يخص البلد، فالشورى والمشاورة واجبه يمليه عليه القرآن الكريم والفقه الصحيح للواقع، وفوائده همة، وقد أحصيت سابقاً جزءاً منها، ولا حاجة هنا لذكرها ثانية.



لكن لو سألنا أنفسنا السؤال الآتي: لماذا الإسلام أقر الشورى وطالب الناس بتطبيقها سواء أكان في الحياة الخاصة أو العامة؟

علماء الأمة دعوا إلى تطبيق نظام الشورى في الحكم والحياة العامة بشكل عام، بناء على التوجيهات العامة التي وردت في القرآن الكريم ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَبْنِيهِمْ﴾ و﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

ومن ثم السنة العملية للرسول ﷺ كما قلت آنفاً حيث برزت جلية في كل المواقف والقرارات التي اتخذها ﷺ في حياته السياسية، وأبرز ما يكون في غزوة أحد حيث كان رأي ﷺ مقابلة زحف مشركي قريش في المدينة، داخل حدود المدينة؛ إلا أن رأي الأغلبية ومعظمهم من الشباب كان يرى مقابلتهم خارج حدود المدينة، فبالرغم من خطورة الموقف وحرجة الوضع ومصيرية القرار بالإضافة إلى كونه ﷺ رسول رب العالمين غير أنه نزل عند رغبة رأي الأغلبية بعد مشاورتهم والنتيجة معروفة، ولم تكن لصالح المسلمين عسكرياً، فلم يلمهم الرسول ﷺ ولم يشعر ﷺ بالزهو بصوابية رأيه، وأن من حقه من الآن فصاعداً الاستفراد بالقرار، بل نزلت الآية الكريمة في أخرج لحظة معنوية نفسية مر بها الصحابة؛ إذ إنهم مهياؤن لتقبل أي مبدأ جديد، تخاطب الرسول ﷺ بأعظم مبدأ سياسي عرفه التاريخ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 59] أي ابق يا محمد رئيس الدولة وشاورهم وخذ برأي الأغلبية منهم بالرغم مما حدث؛ علماً أن هذه النتيجة من الناحية النفسية أفضل فرصة لتكريس الاستبداد بالرأي والاستفراد بالقرار إلا أن القرآن الكريم رآها على الضد من ذلك؛ إذ إنه رآها فرصة لأن يخلد ويكرس مبدأ الشورى حتى في الظروف التي يظن



بها البعض أنها الأنسب لفرض الاستبداد والاستفراد؛ وذلك لتعظيم التوكيد بأن تحدثهم أنفسهم بالاستبداد والاستئثار بالرأي أو بالقرار أن لا مجال البتة في إقصاء مبدأ الشورى فكراً وسلوكاً.

فاستحكام مبدأ الشورى في نفوس الناس ووعيهم ووجدانهم في مثل هكذا ظروف أعظم تمكناً وترسخاً من أي ظرف آخر.

لكننا ما زلنا نساءل: لماذا أقر الإسلام الشورى وأمر بتطبيقها؟

فحسب أقوال العلماء: على الأمة تطبيق مبدأ الشورى استجابة لتوجيهات القرآن الكريم والسنة العملية للرسول ﷺ ولو لم تكن للشورى فائدة أعظم، ومردود أفضل من ذلك لما كان القرآن يأمر الرسول ﷺ بالاستمرار في مشاورة الناس في جميع الظروف، ولما كان الرسول ﷺ يثابر مواظباً على ممارستها.

160

أي أن العلماء يعتنقون مبدأ الشورى ويعتمدونه؛ لأن مصدره النص الديني، ثم لما له من فوائد ومنافع تعود على الجماعة، وهذا بلا ريب صحيح لكن بالتفكير الملي، وبالتأمل العميق نصل إلى أن الاستبداد بالرأي وبالقرار في الأمور التي تخص الآخرين يسد طعنه نجلاء في قلب كرامة الإنسان «لباب الكرامة» الذي عكسته في الإنسان الآية ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، والتي تعني هنا شعور الإنسان بعزة نفسه واعتداده بذاته، وبحقه وجدارته بنيل احترام وتقدير الآخرين له لما ينطوي عليه.

فالاستبداد يشعر الإنسان بالتهميش وقلة التقدير والاحترام فيتملكه



تلقائياً الإحساس بالإهانة والنفور وبامتلاء قلبه بالحنق والسخط، ويشعره أيضاً أن إنسانيته مستهدفة باستهداف لباب كرامته وهذه وصفة مؤكدة ليحجب الإنسان أفضل ما عنده ويضن به عن المستبد ومحيطه، هذا في أحسن الأحوال؛ إذ قد يدفعه الاستبداد إلى إخراج أسوأ ما لديه، فيكون الحصاد مرّاً ومدمراً لكل شيء.

ومن هذا الحصاد المر الذي يحصده النظام المستبد والمجتمع هو حصول الضعف إلى حد التلاشي في عنصري الولاء والانتماء للدولة أو للجماعة المستبدة من قبل الأفراد، ومثل هؤلاء الأفراد سيكونون نهباً سهلاً لأي جهة معادية للنظام أو للمجتمع.

اعترفت إحدى وكالات الاستخبارات لدولة معينة أنه يسهل عليها تجنيد عملاء لها من دولة مستبدة يشعر مواطنوها بالإهانة، وذلك لضعف ولائهم وانتمائهم للدولة، من أي دولة غير مستبدة، يتحول هؤلاء أعداء لمجتمع بتبلد حسهم الوطني، الذي صنعه الاستبداد بهم والأمر ذاته يحدث مع أي حزب أو جماعة مستبدة.

من هنا إذاً ومن سواها، جاء الأمر بالشورى في الإسلام، وحرصه البليغ على تطبيقها؛ لما فيها من احترام لـ (لباب كرامة الإنسان) كل إنسان، وهي ليست من بشر لبشر، فيمن بها أحدهم على الآخر أو يتباهى بها بعضهم على بعض، فهي من الله ﷻ قد أقرها للبشر جميعاً أبناء آدم عليه السلام، وكلهم متساوون بها، وكلهم كما قلنا سابقاً، يتفاضلون بينهم بالوعي بها؛ ولكونها مدعاة لإخراج أفضل ما عند الناس عن طيب



خاطر، والشعور بالمسؤولية الجماعية ثم لباقي الفوائد والمنافع التي تحققها الشورى على المستويات كافة، الفرد والجماعة والدولة.

ولطالما في السجن مما كان يحدث أمامي أن غضبت فصائل صغيرة وسخطت على الفصيل الكبير الذي أهله حجمه بأن ينطق أحدهم باسم جميع الفصائل أمام إدارة السجن، حين كان يجنح هذا الفصيل إلى الاستبداد بالقرار حيال إدارة السجن وحجب أخبار ما يحدث بينهما عنها تعسفاً واستكباراً؛ فقط لأن هذا الفصيل قادر على الاستبداد، فكانت هذه الفصائل تحتج عن طريق تصليب مواقفها، ووضع العقد بالمنشار وافتعال بعض الأزمات ثأراً لكرامتها المهانة، ونكاية باستبداده وتدفعه الثمن على التهميش، انظر معي كيف أن كرامة الإنسان، وكرامة الجماعات أساسية لحياة الناس في أن تكون حياة صحية سليمة ومتعاضدة!

162

وإذا ما عدنا وارتبطنا بالفصل السابق «وإياك نستعين» التي منها كما قلنا نستلهم الجماعية في العمل، والتعاون لأجل أداء عبادة الاستخلاف في الأرض على أكمل وجه، ثم ربطناها بـ «اهدنا الصراط المستقيم» يتبين لنا المنهج السليم الذي نجتمع عليه ونستقيم في النهوض بتكاليف الخلافة وعمارة الأرض؛ فإننا سنهتدي إلى اعتماد مبدأ الشورى وتشاور الجماعة في الأمور كلها، التي تخص الناس جميعهم أو بعضهم.

فالشورى إذاً هي الـ «الصراط المستقيم»، على المستوى العام والخاص على مستوى الفرد والأسرة ومستوى الجماعة والدولة؛ إذ إن الشورى آلية ناجحة جداً ليس فقط لتأمين الشراكة والحس بالمسؤولية، وبتقديم أفضل



ما لديهم على المستوى المادي عن طيب خاطر، بل ولا استخراج أفضل ما تجود به عقولهم على المستوى المعنوي والفكري.

ولكي تعطي الشورى الأجدود والأفضل، تبرز أهمية الحرية وحرية الرأي وأهمية منحهما للجميع، كاستحقاق رديف للشورى، ولا سيما الحرية من الخوف، الخوف من الاعتقال أو الإيذاء أو الإهانة أو في حده المتطرف القتل حتى يتمكن الجميع من التعبير عن آرائهم ومواقفهم بمنتهى الحرية والأمان في سبيل أن تستخرج منهم أعمق ما لديهم وأجدود ما عندهم؛ إذ من المرجح أن يريد كل واحد منهم أن يكون رايه هو الأمثل والأفضل والأكثر قبولاً واستحساناً، أو لربما بدافع المسؤولية وحرصه الشديد على إنجاح المشروع وغيرته عليه.

نخلص مما سلف ألا شورى بلا حرية رأي ولا حرية بلا كرامة، فاحترام (لباب كرامة الإنسان)، إذاً هي جذر وأُسُّ التطور والنمو والازدهار.

قبل نحو عقد من الزمن من كتابة هذه التأملات، كنت أقبع في أحد أقسام سجن جلبوع وكان الناطق باسم القسم أمام الإدارة -للأسف- يستقوي بها على من يعارض سياساته من الأسرى، تصل إلى حد نقل الأسير إلى أبعد سجن عن أهله وذويه، بإيعاز منه عقاباً له ونكالاً على معارضاته وامتعضاته.

وكنت في أثناء أحاديثي مع الآخرين ألحظ أنهم عندما يضطرون لنقد



سياسة الناطق وتوجيهاته يخفضون من أصواتهم إلى درجة؛ خشية أن يسمع نكدهم أحد فيكون من أعوانه فيتناهى إليه ما قال، فتبقى عملية نقله إلى سجن بعيد مسألة وقت، ويكون نكده سبب معاناة أهله وإرهاقهم حين زيارته في سجن قصي، فضلاً عن تعذبه هو ومعاناته بسبب انخلاءه عن بيئته الاجتماعية من الرفاق والأصحاب الذين اعتاد عليهم واعتادوا عليه.

كان الخوف من التعبير عن الرأي حتى نهاياته يخلف وراءه على وجوههم قسّمات ذل وإهانة واحتقان وخضوع، وجميعها علامات للعبودية والقهر، هذه المرة ليس الخوف من الاعتقال هو يردعهم ويقمعهم، وإنما الخوف من الانتقال.

كنت أرى شريحة مستعبدة ليست مسلوقة حرية الحركة فحسب من مجرد أسرها واعتقالها، وإنما مسلوقة حرية التعبير حتى عما يخصها على نحو مباشر حول حياتها الحبيسة، وللأسف من قبل أسير مثلهم الذي من المفترض أن يقارع معها إدارة السجن؛ لتوسيع دائرة حريتهم الممكنة، وتحسين شروط حياتهم، بدل أن يستعين بالسجان لقمع من يعارضه عبر نقله إلى أبعد سجن.

وعندما كان أحدهم يحسر ويخاطر، ويجاهر بمعارضته سياسة الناطق، تغدو عملية نقله مضغّة تلو كها السنة الأسرى، متوقعين نقله في أية لحظة، وفعلاً هذا كان يتم بعد يوم أو يومين من جهره، وإذا تنهى إليه أن اثنين أو أكثر ينبعث منهم بوادر معارضة لسياساته، فإنه يبدأ يشيع بين الأسرى عبر وكلائه أن ثمة (محور شر) يتشكل، مقتبساً مقولة جورج بوش



الرئيس الأمريكي الأسبق: «وذلك لوأد المعارضة وهي ما تزال جنينية»، وإذا لم يستجيبوا لهذا التحذير المبطن وتمادوا في (غيهم) فإن مصيرهم سيقرره الناطق مع سجانه: النقل.

قديمًا قال سقراط: الذي لا يستطيع أن يفكر مجنون، والذي لا يريد أن يفكر متعصب، والذي يخاف أن يفكر عبد.

كان أسرى القسم يخافون أن يعرضوا أفكارهم على بعضهم البعض، الأفكار التي من شأنها أن تنهض بواقعهم المرير، واقع الخضوع والانكسار؛ إذ إن الثقة شبه معدومة، والرغبة في التغيير باتت شبه مفقودة. إنه لأمر مرعب أن يعيش الإنسان وسط بيئة مسلوبة فيها الحرية: حرية التفكير، وحرية الرأي والتعبير. فتقييد حرية الإنسان بغير حق ظلم واعتداء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 57]، والظلم عدوان مبين، وقد حرمه الله ﷻ على نفسه وحرمه على خلقه، لقوله ﷻ فيما يرويه عن الله ﷻ: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» [رواه مسلم].

ومن لا يقبل أن يكون عبداً لغيره من البشر، فلا يستعبد غيره من البشر؛ كأن يمنعه من حرية الرأي والتعبير بحكم سلطته أو قوته باسم مصلحة الحزب أو مصلحة البلد أو باسم الدين أو الأيديولوجية أو المذهب، فالحرية لا تتجزأ، والحرية من كرامة الإنسان، وكرامة الإنسان أقرها الله ﷻ للإنسان كل إنسان، ولا يحق لأي كان سلبها منه البتة.



«اهدنا الصراط المستقيم» ومبدأ العدل:

نهاية العدل في أي مجتمع أو تجمع تعني بداية الفوضى والتفكك والانهيار، والإنسان المؤمن حينما يمارس العدل في معاملاته كافة فإنه يتعبد لله ﷻ؛ لأنه بذلك يستجيب لأمر الله ﷻ في كتابه الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾ [النحل: 90]، وكما قال الأولون: «حيثما كان العدل فثم شرع الله ودينه».

إذ من الشريعة الإسلامية نشر العدل ومزاويلته، قولاً وفعلًا إزاء القريب والغريب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: 152] ولا يحسن أحد ظلمًا وزورًا أن الشريعة الإسلامية هي فقط منظومة الحدود وقوانين الجزاء، كحدود الزنى والقتل والسرقة، والتي هي جزء محدود من الشريعة، ومن كلمة الله ﷻ وكلمة الله هي العدل والحق وتحقيق الكرامة والأمن والحرية للبشر لا يكون بعضهم أربابا لبعض⁽¹⁾.

والجهاد في سبيل الله إنما فرض على المسلمين لتكون كلمة الله ﷻ هي العليا، فإذا كان ثمة ظلم واقع على شعب أو فئة معينة فالأمة مدعوة لأن تجاهد في سبيل رفع الظلم والقهر عن هذا الشعب أو تلك الفئة دون مقايضتهم بالإيمان، أو بفرض العقيدة عليهم وإنما هو جهاد في سبيل الله لرفع الظلم دون شروط لوجه الله ﷻ ولتبقى كلمته هي العليا، بسيادة العدل بين الناس؛ لقوله تعالى ﴿لَيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25].

وشرع القتال في بعض حالاته لبسط العدل بين الناس لضمان حرية

(1) يوسف القرضاوي، فقه الجهاد، ص 57.



العقيدة للمسلمين ولغيرهم، أي أن الإسلام سيّج حرية الاعتقاد وبضمانات كثيرة تصل إلى إعلان الجهاد على الطغاة والظالمين الذين لا يحترمون هذا الحق للناس، والذي بجوهره هو احترام للباب كرامة الإنسان.

وفي صدر الإسلام عندما كانت تفتح بلاد معينه، لم يجبر أهلها على اعتناق الإسلام، ثمناً لشيء أو مقايضة على شيء أو حتى مكافأة للفتحين، وإنما كانوا يتركوهم وحريتهم، وذاك حفاظاً على مبدأ العدل وعلى كرامة الناس «لباب الكرامة» من أن تسلب منهم حرية العقيدة وحرية الاختيار والإرادة.

فالصفوة إذاً تكون قد اختارت «الصراط المستقيم» باعتمادها مبدأ العدل سلوكاً وفكراً ودعوة في تعاملها مع كل شيء، ومع كل أحد أيًا كان هذا الإنسان، ومن اعتمد مبدأ العدل أساساً في تفاعلاته فهو عملياً قد اختار احترام كرامة الإنسان.

والعدل في العلاقات الاجتماعية، هو الحد الأول من العلاقات الإنسانية السوية؛ إذ ثمة فضائل وقيم فوق العدل، وإذا ما أتى بها الإنسان في تفاعلاته مع الآخرين فانه بذلك يضيفي على علاقاته وتفاعلاته عمقاً إنسانياً جميلاً جداً، ويبرز بها إنسانية الإنسان، وكل تفاعل فوق العدل يقوم به الإنسان مع أخيه الإنسان فهو بلا ريب يرسم لوحة فنية جميلة مشرقة تشكل بهجة للناظرين ومثلاً للآخرين وكل ما هو فوق العدل يعد من الإحسان.



فلا غرو أن تتكرر في القرآن الكريم، والسنة النبوية والأوامر التي تستنهض البشرية على حمل الإحسان والتحلي به ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90]، ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]، وقوله ﷺ «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» [رواه مسلم]؛ لأنه إذا كان بالعدل يسود النظام والثقة والطمأنينة والاستقرار والتعايش السلمي فإنه بالإحسان تنتشر المحبة ويتعزز التضامن والتكافل والتعاون بين الناس، ويتعاضد الاستعداد للتضحية لأجل الكل ولأجل حماية المجتمع ومصالحه، وجميعاً تصلب قوة المجتمع وتغذي تماسكه.

فما أحوج المجتمع البشري إلى العدل والإحسان في العلاقات وفي المعاملات، وما أشد حاجة المجتمع الذي يئن تحت مطرقة القهر والقمع، ومصادرة الأرض وهدم المنازل، لممارسة العدل والإحسان في علاقاتهم الداخلية الخاصة والعامة.

ولأهمية العدل في حياة البشر فإن القرآن الكريم أكد عليه أشد التأكيد حتى في خطابه مع المعاندين للدعوة الجديدة، ومع الكافرين بالدين الجديد، وذلك يظهر جلياً على لسان الأنبياء لأقوامهم المكذبين، كقوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ﴾ [هود: 35]، وفي موضع آخر ثمة آية تظهر قيمة العدل والأدب والحلم للأنبياء في خطابهم مع المخالفين المعاندين ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41]، فبالرغم من يقينهم وإيمانهم بصدق ما جاؤوا به غير أنهم أنصفوا



خصوصهم وساووهم بهم، فإنهم لم يقولوا لهم لا تسألون عما عملنا ولا نسأل عما تجرمون أو نحن مسؤولون عما نقوله وأنتم مسؤولون عما تفترون، فكأنما يقولون لهم نخاطبكم كإنسان إلى أخيه الإنسان وحتى وأنتم تعادوننا وتعاندون دعوتنا فإننا نحترم كرامتكم ونعاملكم بالعدل عبر مساواتكم بنا بالنعوت والوصف، ولم يتعاملوا معهم من عل وبنفس فوقي كأنهم هم الحق المطلق، وكأنهم وحدهم يملكون الحقيقة، ويحاولون فرضها على الآخرين، ولا يريدون سماع ما لديهم من حجج وتصورات بل على العكس، فإن القرآن الكريم يفتح الباب مشرّعاً للمجادلة والإدلاء بالآراء، لكن لا يريده جدلاً عقيمًا لأجل الجدل وإنما الجدل القائم على الدليل والبرهان ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: 64]

والقرآن (صدره) واسع و(حلمه) كبير باستعداده لسماع الآخرين من المعاندين والرافضين، حتى في أهم قضايا العقيدة كقضية التوحيد والعبودية وتصور الكون والحياة ومصير الإنسان و(صدر) القرآن و(حلمه) أوسع بكثير من صدور شبابنا العربي المتدين الذي ما أن يسمع من الغير شيئاً يناقض ما يحمل من حقيقة وحق، من وجهة نظره يتشنج ويغتاظ ويضيق نفسه وخلق، ويود لو يبطش به ويطيح برأسه، بدل أن يفتح له صدره وعقله ويتزين بالحلم والصبر، ويتحرى أجمل وأحسن الأساليب في النقاش والجدل على هدي القرآن الكريم واسع (الصدر) كريم (المنطق) ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46] بل حتى إن القرآن الكريم يرتقي مرتقى أعلى من العدل في خطابة الرفيع مع غير المؤمنين كما جاء على لسان بعض الأنبياء في خطابهم مع أقوامهم الكافرين



﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 25]، هذا هو الإحسان بعينه في الخطاب مع المخالف، إحسان يذهل السامع، وتنحني له الحياة إجلالاً وإكباراً.

وثمة شكل آخر لإحسان الأنبياء في خطابهم مع أقوامهم المعاندين، إذ ثم يشتمون ويسفهونهم، فيما أنبيأؤهم يرددون عليهم أروع حوار سمعته الأذن: ﴿وَالِإِنِ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوِمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْفِقُونَ﴾ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِيِّكَ (٦٦) قَالَ يَنْفَوِمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُتِلَّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿ [الأعراف: 65 - 68]، أما اليوم فبعض من شبابنا العربي المتدين ما أن يعرف أن نظيره غير مؤمن حتى يضيق به صدره فماذا يكون حاله يا ترى في حال الجدال إذا ما سفه نظيره دعابة؟! أو ليس هذا مدعاه لنا في أن نراجع أداءنا وأساليبنا في الخطاب مع الآخر؟! بحيث يكون الهدف منه الإقناع والتقريب لا الانتصار للذات وإظهار الغلبة عبر الاستفزاز والتجريح، وكأن قناعاتي بما أحمل تخولني على تقديم الآخر المخالف وتسفيهه وازدراؤه متجاهلاً أو متناسياً أساليب القرآن الكريم الجميلة والإنسانية الرفيعة المذكورة أعلاه، أم أننا نأخذ ببعض القرآن ونترك بعضه؟! وقد يساور البعض الظن أن هذا من خلق الأنبياء، ولا يقوى عليه المؤمنون من البشر العاديين، أو أنه فوق طاقتهم وسعتهم.

إذا أمرك الله ﷻ بأمر أو فعل شيء فإنما هو يقيناً من قدرتك واستطاعتك؛ لأنه تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286].



وبما أنه تعالى قد وجهك أنت أيها الداعي أيها المؤمن بأن تجادل بالتي هي أحسن ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿[العنكبوت: 46]﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿[الإسراء: 53]﴾ فهذا برهان على قدرتك الاقتداء بهم - صلوات الله عليهم -.

هذا مع الكافرين الذين قد يكونون من غير أهل الكتاب، فماذا نقول أو كيف يكون قولنا لهم؟ باختصار ينبغي أن يكون على طريقة قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ شَيْءَ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنْ شَيْءَ يَعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 54].

أي: حتى وإن بقوا راكبين عنادهم وكفرهم، وضاق صدرنا بما قالوا علينا أن نكظم غيظنا ونحشد عملنا، ونقول لهم الأجل من القول: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ وهنا إشارة مرة أخرى بآلا نرفض سماع حقيقتهم التي يؤمنون بها وندعي لأنفسنا الحقيقة المطلقة، ولا نقبل بسماع غيرها، بل نحاجج بالتي هي أحسن، ونبين ونبلغ، فإننا لسنا متجبرين ولا طغاة مسيطرين ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: 45]، ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: 22].

وكان لسان حالنا يقول: هذا ما عندنا وهذا ما نؤمن به إنه الحق، وقد بلغنا وبينا بالتي هي أحسن ثم ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾، ومن بقي على كفره وظلمه فمصيره يقدره ربه يوم التناد، لا بيدي ولا



بيدك أيها الشاب المتدين، أما من قاتلنا فنقاتله، ومن عادانا فنعاديه، لكننا أبدا لا نقاتله بسبب كفره ورفضه لدعوتنا، بل نبقى نخاطبه بالتي هي أحسن ونبقى نثابر على بره والعدل معه ما طلعت الشمس من مشرقها ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿المتحنة: ٨ - ٩﴾؛ إذ إنه لا يقع عليها حسابهم في الدنيا لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 52]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الحج: 17]، إذا ينبغي أن يتحلى خطابنا أيضا بالعدل والإحسان وليس معلنا فقط.

وإذا أردنا أن نزيد الفرق ما بين العدل والإحسان وضوحا وظهورا نضرب بعضا من الأمثلة:

إذا ما عمل شخص عندك أجيرا واتفقت معه على مقدار أجرة ووقت سداذه، فمن العدل أن يحرص العامل بجِد وأمانة بأن ينجز ما اتفقتما عليه من عمل، وإذا أنت ناولته أجرته بالمقدار الذي اتفقتما عليه، وفي الوقت المسمى بينكما تكون قد حققت العدل معه أنت أيضا، لكنك إذا منحتَه مبلغا معيناً فوق أجرته المتفق عليها فإنك قد دخلت دائرة الإحسان، فبعدلك معه يثق بك وبأمانتك، ويثابر على العمل معك، ويحرص على تحسين صورتك بين نظرائه وأصدقائه، ويحرص بأن لا يغشك، لكن بإحسانك إليه يحبك، ويخلص في عمله، ويهتم بحماية مصالحك ويحرص أن تزداد أرباحك وسعادتك.



إيتاء الزكاة: والتي هي فريضة على كل مسلم ومسلمة من قبل المسلمين الأغنياء والمستورين في المجتمع المسلم، وتوزيعها على فقراء نفس المجتمع، عدل بيّن يورث الاستقرار الأسري والمجتمعي، ويعزز الثقة بين جميع الطبقات، لكن ثمة صدقة حث عليها الإسلام تعطى للمحتاجين أو حتى لأعمال الخير النافعة للمجتمع؛ تأتي فوق الزكاة، وهي غير مفروضة على أحد، وإنما تصدر من المسورين عن طيب خاطر وتقرباً إلى الله تعالى، فهذه الصدقة تعد من الإحسان، والإحسان هنا فضلاً عما يورثه مما ذكرنا سالفاً فإنه يزيل ويذيب الحقد والحسد من قلوب الفقراء والمحتاجين على الأغنياء والمجتمع بشكل عام، مما يساهم في تماسك المجتمع ووحدته، وتعزيز فضيلة التضامن الجمعي بين طبقات المجتمع كافة.

فانظر كيف أنه بالعدل والإحسان يريح الطرفان ولا يخسران البتة، فبهما تنتشر المحبة بين الناس، وتسود الثقة، والتي هي من أهم مقومات الحياة المشتركة الناجحة، ويقوى التضامن والتكافل، ويقوى بالتالي المجتمع برمته، فيكون أقدر على مواجهة التحديات والتهديدات.

أما ما دون العدل، فهو الظلم والبغي والعدوان، وغيابه يورث الحقد والضغينة والاستهتار بالمجتمع وقيمه ورموزه وحتى مصالحه، ما ينذر بتفكك الجماعة أو المجتمع ثم انهياره.

إذ إن استمرار الظلم في أي مكان، وفي أي شكل كان، سيضعف لا محالة عند البعض إن لم يكن الكثيرين شعور الانتماء للجماعة أو المجتمع (الدولة)، وسيضعف ولاهم له ولمصالحه، مما قد يجعلهم غير مباليين



بمصالح المجتمع ووحدته في أقل الحالات سوءاً، ولربما يجعلهم تجاراً عابثين يبيعون مصالح الوطن، ويبيعون أرواحهم لسارق أرضهم ومستقبلهم، عدو الشعب والوطن.

ولا يستهن أحد بمظاهر الظلم حتى لو كانت في الخلية الأساسية في المجتمع - الأسرة، بل لربما يكون أخطر الظلم ذاك الذي يقع في داخل الأسرة من الأب تجاه ابنه أو ابنته، كأن يميز بين الابن والابنة أو يحابي ابناً على ابن آخر ويفضله عليه، أو يحاييهم أو حتى يعاملهم بالقسوة والعنف الدائم، أو عنف الزوج تجاه زوجته سواء العنف الكلامي أو الجسدي.

إذ إن هذه جميعها أو بعضها من شأنها أن تنمي لدى الفرد من طفولته الحسد والحقد والكراهية تجاه أبيه وأسرته في المرحلة الأولى، والتمرد والانقلاب على قيم الأسرة والمجتمع في المرحلة الثانية، مما قد يحيله إلى عنصر هدم المجتمع يمنح للعنف والعربدات والجريمة، لإثبات ذاته وتعزيز قدراته التي لم يتح لها عنف والده أن تنطلق لتحقيق الذات انطلاقاً طبيعياً منسجماً مع الطموح والدوافع الذاتية، فيكون الفرد (الشاب، الشابة) قد خسر ذاته، والأسرة تكون قد خسرت ابنها، ثم المجتمع برمته قد خسره، لربما قد خسر مبدعاً أو قائداً أو مفكراً كبيراً، فمصلحة المجتمع برمته إذاً ألا يكون ظلم في المجتمع من أي نوع كان وفي أي مكان.

هذا ما قد يخسره المجتمع من ظلم يقع في دائرة الأسرة، ولك أن تتخيل الخسارة العظمى التي سوف تحقق وتفتك بالمجتمع إذا ما كان الظلم يقع من الدولة على المجتمع وأفراده وجماعته، وكيف أن أفراد هذا المجتمع حينذاك سيكونون نهباً سهلاً لأعداء هذا المجتمع!



«صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين»:

بعد أن جد واجتهد في طلب «الصراط المستقيم» عملاً وتضرعاً عند كل مفرق، فإنه يكشف عن مقصوده من «الصراط المستقيم» الذي ينشده ويطلبه؛ إذ إنه لا يريد أيما صراط مستقيم، بل «صراط الذين أنعمت عليهم» صراط الذين وفقوا له، وثبت استقامة صراطهم، وثبتوا هم في الاستقامة عليه، أي أنه يريد صراطاً مجرباً، وهنا أقصد «اهدنا الصراط» بالمعنى الثاني: معنى يَبْنِيهِ وعَرَّفَهُ لي، أي: يا رب اهدني ودلني على المنهج الواضح الذي لا اعوجاج فيه الموصل للحق والحقيقة عند كل مفرق يجابهني، والمنهج الذي لا تصطدم نتائجه مع فطرة الإنسان أو مع البيئة أو مع مصالح الآخرين.

وبما أن الطريق والمنهج من معاني الصراط فهذا يظهر عظم الأهمية البالغة التي يجب أن نعطيها ونوليها لطريقة ومنهج معالجة ما نواجهه من تحديات أو تهديدات أو مشكلات بحيث ينبغي أن نكون منهجيين ومنظمين ومنطقيين في سلوكنا أيًا كان نوعه، لا فوضويين وارتجاليين وانفعاليين، وهذا يتطلب منا عند كل مواجهة أن نقف، ثم نفكر بكل جوانب ما يواجهنا، ثم نتلمس المنهج الأفضل والأمثل الذي يصل بنا إلى المعرفة (الحقيقة) والخير والعدل والجمال والرحمة، وهذا يعني فيما يعنيه أننا مسبقاً نتوخى من أي منهج نعتمده ونتبعه لمعالجة قضايانا، تحقيق تلك المعاني الخمسة أو جزء منها، ويجنبنا بالضرورة الوقوع بالظلم أو العدوان.

هذا هو إذاً صراط الذين أنعم الله عليهم: هم الذين حملوا هذه المعاني، ولزموها دعوة وعملاً، واستعدوا دومًا للتضحية في سبيلها ﴿مَنْ



الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ
وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ [الأحزاب: 23].

بعد أن استوفينا النظر في الفرق ما بين «اهدنا الصراط» التي بمعنى
ثبتنا، وتلك التي بمعنى بين لنا ووقفنا، حيث قلنا بأننا في الأولى نقصد الله
ﷻ بأن يثبتنا على الاستقامة والثبات على القضايا العقدية الكبرى، وباقي
القطعيات، والتي بمعنى من المعاني تشير إلى جوهر هويتنا، وهوية من التزم
بها منذ أبينا آدم عليه السلام إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها.

و«اهدنا الصراط» بالمعنى الثاني الذي نقصد به الله ﷻ بأن يبين لنا
ويوقفنا للخيار الأمثل، أو بالأحرى بأن يعرفنا المنهج المستقيم الذي يوصلنا
إلى الحق والحقيقة والخير والعدل، في مفارق الطرق التي تضطر معها بأن
نختار البديل الأمثل، والذي وصفناه بـ «الصراط المستقيم» من بين عدة
مناهج أمانا يتبين لنا أن ليس ثمة تعارض ما بين المعنيين، فالمعنى الأول:
ثبتنا يفسر على أنه تضرع إلى الله ﷻ بأن يثبتنا على المنهج الذي اخترناه
في حياتنا الدنيا من فور اعتناقنا الإسلام ديناً ومنهجاً ليوصلنا إلى الفوز
والفلاح في الآخرة.

وبشكل عام أي منهج تختاره بجد صادق واجتهاد أمين ليصل بك
إلى أهدافك النبيلة فهو بالنسبة لك، «الصراط المستقيم» في لحظتك تلك،
وإذا ما كانت أهدافك مما ترضي الله ﷻ فإنك من الذين أنعم الله عليهم،
وبلغة مرادفة: أي طريق تسلكه أريد به وجه الله ﷻ وهو أخلاقي فهو
«صراط مستقيم».



وإذا ما عدنا للقرآن فإننا نجد أن القرآن الكريم قد حدد من هم الذين أنعم الله ﷻ عليهم لقوله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

فالنبيون هم حملة رسالة الرحمة والخير للناس، وفي مقدمتهم الرسول محمد ﷺ وكما أخبرنا ﷺ عن ذلك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، والصديقون هم من صدقوهم وصدقوا في حملها ونشرها والذود عنها، والشهداء هم الذين سقطوا دفاعاً عنها وإيماناً بها والصالحون هم الذين آمنوا بها وساروا على هديها في دروبهم وأعمالهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: 9].

ولو توقفنا قليلاً عند الصالحين، وهم إحدى الفئات التي أنعم الله ﷻ عليها لوجدناهم أنهم اختاروا وحددوا منهجهم من البداية، وهو الإيمان والعمل الصالح فكل عمل أريد به وجه الله ﷻ هو أخلاقي، فهو يعد عمل صالح، واعتمادك له يكون «صراطك المستقيم».

فنخلص بالقول إن كل عمل صالح نقوم به وأريد به وجه الله ﷻ فهو «صراط مستقيم»، فنكون بذلك من جملة الذين أنعم الله عليهم بأن وفقهم وهداهم إلى «صراط مستقيم» في ذلك العمل.

عمل خير + لوجه الله ﷻ = عمل صالح = «صراط مستقيم»

وهو المنهج الذي يؤدي إلى السعادة



بحيث نعرف عمل الخير على أنه كل ما يحقق منفعة ويدرك مفسدة من قول أو فعل، وإذا اقترن هذا الفعل بإخلاص القصد فيه لله ﷻ فقد هدي به الفاعل إلى صراط مستقيم، وعندها لا يحدد إلا السعادة التي لا يخالطها تعاسة أو انتكاسة؛ إذ إنه يعرف أنه كان قدر الله ﷻ الذي به فرج عن مهموم أو مكروب أو محروم أو مظلوم، فيفرح أيما فرح بأن استعمله الله ﷻ لأن ينحت البسمة على وجوههم، دون أن ينتظر من أحد جزاء أو شكورًا، ولم يعد يبالي أشكره الناس أم لم يشكروه، ذموه أو مدحوه، فالسعادة التي خامرت قلبه وسرت في عروقه تجعله يستزيد من عمل الخير، ويفتش عنه تفتيشًا، فلا غرو بأن يستنهضنا الله ﷻ ورسوله ﷺ لقول الخير، والدعوة إلى الخير وفعل الخير: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٌ هُوَ مُوَلِّئُهَا فَاسْتَثَبُّوا الْخَيْرَ آيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 148]، ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104]، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: 77]، وقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» [رواه البخاري ومسلم].

وثمة أناس يقومون بفعل الخير، وهو حقًا يستجيب لمعايير فعل الخير لكنه ليس لوجه الله تعالى، وإنما ليتمدحه الناس وليذيع صيته بينهم بأنه للخير فعال وعلى حاجات الناس وقاف.

باختصار إنه يفعل الخير للمجد، ومثل هذا وإن كان يفعل الخير، فهو ليس على «الصراط المستقيم»، الذي يوصله إلى سعادة العطاء، المهم



ألا يتوقف قول الشعر فيه وإذا حقًا لم يسمع منه شيئًا انقلبت سعادته
تعاسة، ولا يتوقف لسانه بالطعن بالناس والتسخط منهم كأن يقول: «لا
يثري مع الناس معروف».

وإذا ما بقي يفعل الخير بالرغم من قلة مادحيه، فإنه لربما كفته
مديحة هنا، أو إماعة حسنة هناك، أو لربما يبقى يحدوه الأمل أنه لا بد من
ظهور مع قادم الأيام من يقدر له معروفه وأفعاله، ولا يبخسونه حقه، ولا
عطاءه.

ولطالما بالسجن كنت أسمع من أسير معين يزاملني الحياة في القسم؛
الطعن بهذا الأسير أو ذاك، وأحيانًا بأشنع العبارات، وكان يستفرد قائلًا:
«البارحة فقط قد صنعت له معروفًا في كذا وكذا والصراحة ما يستاهل»،
وكان بذلك يفضحه بدل أن يستره وكل ذلك لكون الأسير المشتوم مر من
جانبه دون أن يلقي عليه التحية وأنا متأكد تمام التأكد أنه لم ينتبه إليه أو
يلحظه، لكنه على كل حال لم يقصد أن يتجاهله البتة، لكن لو كان عمله
خالصًا لوجه الله ﷻ، لما ألقى لردّات فعلهم بالآ، ولظلت السعادة تغمر
صدره، وتؤزّه للخير أزا.

مع أن الإنسان بفطرته جميل ومن جوعة العدل أن يكافئ على صنيعه
على الأقل بكلمة شكر، ولهذا حثنا الرسول ﷺ إلى شكر من أسدى لنا
معروفًا من الناس «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» [رواه أحمد]، لكن الأصل
من كان عمله لوجه الله ﷻ ألا يترقب جزاء ولا شكورًا، ويتعالى عن هذا
الترقب والتطلع، ويكتفي سعيدًا بأن الله ﷻ يرى عمله ويعلمه، «وما



تفعلوا من خير فإن الله به عليم» وقوله ﷺ: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾.

ولتوضيح الفرق ما بين عمل خير وعمل صالح، نرى أن فعل الخير يشترك فيه جميع الخلق، بينما العمل الصالح لا يقوم به إلا من قرن عمل الخير بإخلاص النية لله ﷻ، وحينئذ سيعد صاحب هذا العمل من الصالحين، وسمى هذا العمل بالصالح؛ لأنه استوفى جميع شروط الصلاح التي تقود صاحبه إلى السعادة والجنة، وضد صالح فاسد، والعمل الفاسد، بالرغم من وجود عمل الخير فيه، غير أنه لا يصلح منهجاً وصراطاً للوصول إلى السعادة، فهو إذاً فاسد كوجود أحد مشتقات الحليب بين يديك، لكنه فاسد وغير صالح للأكل لسقوط أحد شروط صلاحه، وهو نقاؤه من الفساد، بسبب انتهاء تاريخ صلاحيته.

180

والناس جميعاً مدعوون للعمل الصالح، ولا يتأتى ذلك بغير الإيمان، وإلا سيتعذر عليهم القدرة على تحويل العمل من مقام عمل الخير إلى المقام الأعلى، مقام العمل الصالح، والذي كما قلنا لا يتحصل إلا بإخلاص النية لله تعالى.

إذاً اعتمادي العمل الصالح كمنهج حياة يؤهلني لأن أكون في سجل الصالحين من ضمن الذين أنعم الله ﷻ عليهم ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴿الفاتحة: 6 - 7﴾، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].



لكن ومن منطلق رغبته في تعظيم الطمأنينة في القلب، ومن فرط
الوجل من مكنونات الغيب يلح من اعتنق العمل الصالح كمنهج حياة في
الدعاء والتحديد بأن لا يجعله في أي وضع أو وقت من المغضوب عليهم
الذين عرفوا الحق والحقيقة، وأيقنت بها دواخلهم، لكن استكبارهم
وشهواتهم وأهواؤهم قد انحرفت بهم عن المنهج والصراط المستقيم
مدفوعين بحب السيطرة والقوة والجاه والمال.

لقد عرفوا تمام المعرفة أن منهج الإيمان والعمل الصالح الموصل إلى
السعادة هو «الصراط المستقيم» صراط الذين أنعم الله ﷻ عليهم، لكنهم
حادوا عنه فباتوا من المغضوب عليهم، فلا تجعلني يا رب منهم ولا من
الذين لم يعرفوا أصلاً الحق والحقيقة فضلوا ضلالاً بعيداً!

تم بحمده تعالى





خاتمة

تبين لنا مما مر معنا من التأملات أن الإنسان كل إنسان يولد وتولد معه كرامته (لباب الكرامة) بصرف النظر عن دينه أو مذهبه أو عرقه أو لونه.

وهذه الكرامة ليس فيها يد للبشر، ويتساوى فيها كل البشر، فلا يتفاضل فيها أحد على أحد، ولا يتفاخر فيها أو يمين بها أحد على أحد، ولا يحق لأحد أن يسلبها من أحد.

إذ هي من الله ﷻ لكل إنسان منذ أن نفخ الخالق ﷻ في آدم ﷺ من روحه ﷻ، وجعله خليفته في الأرض ومن ثم لبنيه ورثته من بعده ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ [الأعراف: 47].

وإنما يتفاضل الناس بينهم بالوعي بالكرامة، وبالوعي للكرامة، وهذا الوعي لا يتحصل إذا اتخذ الإنسان الخمول فراشاً والكسل الفكري لحافاً، وإنما يتحصل وينضج عبر التشمير عن باع الجِد والاجتهاد في التفكير والتأمل الطويل، والرياضة المقيمة في أغوار النفس وأحوالها، ثم بعد توفيق الله ﷻ الاستقامة على الطريقة التي تتجلى كما شرحنا، في سورة الفاتحة، أم الكتاب، والسبع المثاني، ومن تجلت فيه سورة الفاتحة فكراً وسلوكاً ووجداناً كان هو الوعي لكرامته، التقى النقي. وهو عند الله



أكرم: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّكُمْ لَعِنْدَ اللَّهِ عَلَىٰ حَبِيرٍ﴾ [الحجرات: 13]، فالواعي لكرامته إذاً هو الأتقى وهو الأكرم عند الله تعالى ﷻ لكن كل البشر، وكل إنسان كريم على الله ﷻ بما خصه من نعم ومزايا تميزه عن سائر المخلوقات، حتى بات أفضلها وأكرمها، وهذا ما فهمه ووعاه الشيطان، لعنه الله إذ قال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62].

وبما أنه قد قضت مشيئة الله ﷻ أن يكرم الإنسان ويجعله كريماً عليه إذاً يجب أن نكرم من كرمه الله ﷻ طاعة لله تعالى، وتماهيا مع مشيئته ﷻ، فالإنسان حين يحترم كرامة إنسان آخر أيًا كانت ديانتَهُ أو أفكاره أو عرقه فهو عملياً يعبد الله ﷻ بهذا الاحترام، وهذا لا يتناقض بأن نناقش ونعارض ما يخالف ما نحمله أو نرفض ونرد أو حتى نقاتل من يقاتلنا لكن دون اعتداء أوبغي منا، لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190]؛ دون المساس ولو قيد أنملة بكرامة المخالف لنا أو المختلف معنا البتة.

وقلنا أيضاً إن من احترام كرامة الإنسان (الباب الكرامة) تطبيق العدل بين الناس، والشورى وحرية الرأي والمعتقد.

فهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	5
مقدمة	7
تعريف الكرامة	13
منشأ كرامة الإنسان	17
كرامة الإنسان: شعورًا ووعيًا	29
لباب الكرامة	30
كرامة الإنسان ووعيًا	49
أصل الكرامة	55
سورة الفاتحة والوعي للكرامة	71
«الحمد لله» دعوة للعمل والإبداع والإنتاج والشكر	71
«رب العالمين» وشمولية المسؤولية	76
«الرحمن الرحيم» وخلق الرفق والحزم	78
«مالك يوم الدين» والمراقبة والنقد	100
«إياك نعبد» وعبادة العمل والتطوع	116
«وإياك نستعين» والتضامن الوطني	122
«اهدنا الصراط المستقيم»	143
«صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين»	175
الخاتمة	183



« تعريف بالكاتب الأسير »

- الاسم: محمد سعيد حسن محمود إغبارية.
- الشهادات التعليمية:
- مكان الإقامة: قرية مشرفة - الداخل المحتل.
- تاريخ الميلاد: 1968/01/31 م.
- الحالة الاجتماعية: متزوج.
- الإعتقالات: 1.
- تاريخ الاعتقال: 1992/02/26 م.
- الحكم: 3 مؤبدات و 15 عاما.
- 1. له مجموعة من المؤلفات، أهمها:
- 1. دليل القادة في فن القيادة.
- 2. عرب الداخل بين وهم الكنيست وسراب المساواة.
- 3. لعات في عثم الزنازين.
- 4. عرب الداخل جزء من الصراع.
- 5. ولدي يكتب من وراء القضبان.
- 6. رحلة حكيم في سجن السبع.
- 7. رواية، فتاويل لا تنطفئ.

« في هذا الكتاب »

هذه الكرامة ليس فيها يد للبشر، ويتساوى فيها كل البشر، فلا يتفاضل فيها أحد على أحد، ولا يتفاخر فيها أو يمين بها أحد على أحد، ولا يحق لأحد أن يسلبها من أحد.

إذ هي من الله ﷻ لكل إنسان منذ أن نفخ الخالق ﷻ في آدم ﷺ من روحه ﷻ، وجعله خليفته في الأرض ومن ثم لبنيه وورثته من بعده ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ [الأعراف: 74].

وإنما يتفاضل الناس بينهم بالوعي بالكرامة، وبالوعي للكرامة، وهذا الوعي لا يتحصل إذا اتخذ الإنسان الخمول فراشا والكسل الفكري لحافا، وإنما يتحصل وينضج عبر التشمير عن باع الجد والاجتهاد في التفكير والتأمل الطويل، والرياضة المقيمة في أغوار النفس وأحوالها، ثم بعد توفيق الله ﷻ الاستقامة على الطريقة التي تتجلى كما شرحنا، في سورة الفاتحة، أم الكتاب، والسبع المثاني.